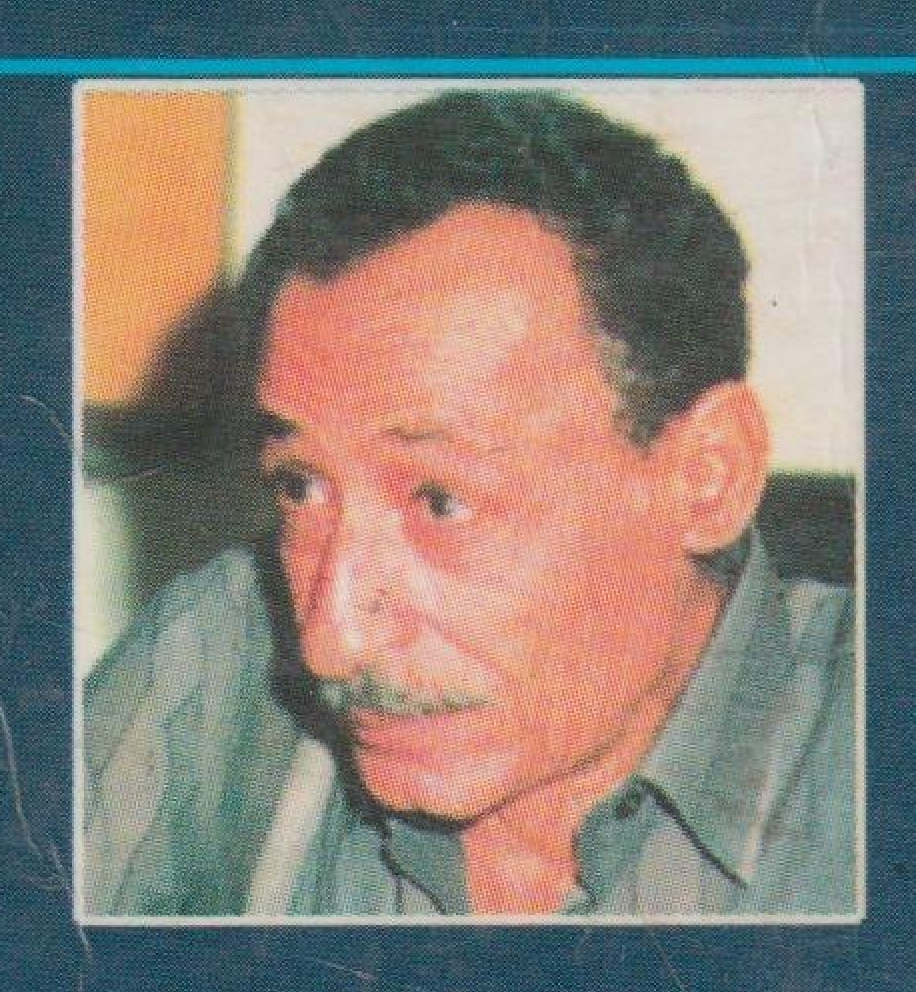


صالح مرسى

أقوى طفل فى العالم

الأعمال الكاملة

رواية

الغلاف : محمد الصباغ


الناشر : مدبولي الصغير

أقوى طفل فى العالم

الناشــر : **مكتبة مدبــولى الصغير**
٤٥ شــارع البطــل أحمــد عبد العزيــز
تليفون : ٣٤٧٧٤١٠ ـ ٣٤٤٢٢٥٠
ميدان سفنكس ت : ٣٤٦٣٥٣٥
رقــم الإيـداع : ٩٣٢٩ / ٩٥

الطبعة الأولى : ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٦ م

المدير الفنى : محمد الصباغ

خطوط الغلاف : لمعى فهيم

المراجعة اللغوية : سيد عبدالله

رواية

أقــوى طفـل في العالـم

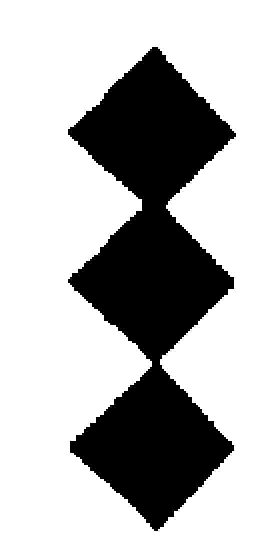
صالح مرسى

الناشر: مدبولى الصغير

الإهداء

الى راجى عنايته،

صالح



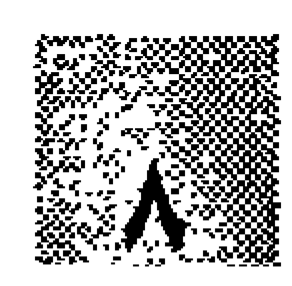
كلمة قبل بداية القصة

تدور أحداث هذه الرواية التي تحمل عنواناً غريباً هو «تنبؤات عقل مورروث»، حول حقيقة بالغة الغرابة ... هذه الحقيقة، وإن كانت لا تزال مطروحة للبحث والتجربة والاكتشافات النفسية أو الروحية الحديثة، إلا أنها تقوم على مجموعة من الحقائق التي ثبتت بالتجربة والتمحيص العلمي... هذه الحقيقة الجديدة، أو بمعنى أدق، هذا التصور الجديد يدور حول سؤال: هل يورث العقل الإنساني كما تورث الأموال والطباع والعقارات والوجوه؟

إن مؤلف الرواية هو « اندرو لورانس»، وهو اسم لم يكن معروفا لدى قبل ان يقع في يدى كتابه هذا ... كان ذلك في إحدى المدن الأوروبية الخاملة الصيت، والتي لجأت اليها في خريف أحد الأعوام هربا، ربما من نفسي، حاملا معي عددا من الكتب التي قد أجد فيها سلوى المعرفة التي تجتذبني كلما شممت رائحة الجديد في العلوم أو المعارف الإنسانية!

انني أتذكر هذا اليوم جيدا... تناولت طعام الغداء في غرفتي في ذلك الفندق الذي يقع في أطراف المدينة وقد مضى على وجودي فية قرابة أسبوع أو أكثر قليلا... ولم يكن هناك ما أصنعه، فلقد فرغت مما حملته معي من كتب، ولم تكن لدى رغبة في مشاهدة التليفزيون حتى لا تداهمني عشرات من مركبات النقص اذا ما تذكرت تليفزيوناتنا العربية ... كما لم تكن بي رغبة في

النوم حتى لا أقضى الليل ساهرا أعد النجوم ومعها هومى!... غير أننى فى النهاية غادرت غرفتى إلى بهو الفندق حيث حركة النزلاء القادمين أو المغادرين، وتنطع بعض الشباب والمتسكعين من أبناء تلك المدينة، والذين يأتون الى مثل هذه الفنادق بحثا عن صيد من السائحات اللواتى لا يملكن من العمر كثيراً، وإن كن يملكن من المال ما يستطعن به شراء متعة عابرة أو جولة يستعدن فيها ذكريات شبابهن الذى ولى. وما هى الا دقائق حتى احتوانى الملل... بدا لى كل شئ هو هو، الناس هم نفس الناس فى أقصى الأرض وادناها، الحركة هى الحركة، الذهاب والإياب والتنطع، التسكع وبرج بابل يمطر عليك عشرات اللغات من كل حدب وصوب، وقد امتلأ البهو وازدحم إثر وصول عدد من الأفواج تكدس اصحابها مع حقائبهم ومشترواتهم... نهضت متجولا بين المحلات التى يمتلئ بها الطابق الأرضى، حتى اذا وصلت الى المكتبة، توقفت فى تكاسل، كنت قد مررت بهذه المكتبة بضع مرات ولم أجد فيها ما يلفت نظرى او يفتح شهيتى للقراءة... حتى اذا كانت لحظة وقعت فيها عيناى على مجموعة من الكتب تحمل عناوين متقاربة لكاتب أمريكى واحد هو «كارلوس كاستانيدا»... كان عدد الكتب سته، وكانت كلها تبحث فى موضوع واحد هو « السحر» أو « المعرفة» حسبما يطلق عليها السيدكاستانيدا أو معلمه الهندى الأحمر «دون جوان»... وكانت نظرة سريعة إلى عناوين تلك الكتب كفيلة بأن توضح لى الأمر... فإن أربعة منها ليست سوى رسالة دكتوراه تبحث فى : «السحر عند هنود أميركا الحمر» أو من تبقى منهم ... وكان البحث عبارة عن تجربة استغرقت من عمر الكاتب أو الباحث، سمه ما شئت، سنوات ست، تحول فيها من باحث إلى تلميذ للساحر الأعظم أو ـ بمعنى أدق ـ كانت التلمذة هى الوسيلة الوحيدة لمعرفة حقيقة هذا العلم ... انتبهت حواسى



الخاملة، وتناولت الكتب السته فى لهفة من عثر على كنز، ليس فقط لأن هذا الفرع من فروع المعرفة الذى يحتقره بعض مثقفينا أصبح الآن علماً معترفاً به في جامعات العالم الكبرى... لكن لأن قرا ءاتى فى هذا المجال كانت جد قليلة... وكان آخرها كتاب أمريكى بعنوان «السحر الأسود»، يحكى كاتبه أهوالاً مفزعة عن هؤلاء الذين يمارسون السحر فى الولايات المتحدة، ويأتون بما يشبه المعجزات التى تقشعر لها الأبدان. ما كدت أحمل تلك الكتب وابتعد عن الحامل الدوار إلى داخل المكتبة كى أدفع ثمن ما اشتريت ، حتى وقع بصرى على كتاب آخر يحمل عنوانا غريبا هو «تنبؤات عقل موروث»!

بدا لى العنوان غريباً بالفعل، بل لقد ظننت أننى ترجمت الكلمات ترجمة خاطئة، ولأول وهلة لم افهم معناه... رحت أتأملة وأعيد قرا ءة الكلمات، ثم تناولت الكتاب والقيت نظرة على غلافه الأخير، وراحت عيناى تلتهمان السطور التهاماً.

كان السؤال الذى يطرحه الناشر، الذى تخصص - فيما بدا لى - فى نشر الكتب التى تبحث فيما وراء النفس أو «البارا سيكلوجى» هو : هل تتحول هذه النظرية - نظرية توريث العقول والذاكرة - والتى تبدو للبعض منا الآن خيالية، الى واقع علمى شأنها فى ذلك شأن كل النظريات التى تتساقط من عالم الخيال الى أرض الواقع مثل ثمر طازج لجهد العقل البشرى في البحث والتنقيب ؟ !

هل حقا تورث العقول كما تورث الصفات الجسدية والنفسية والأموال؟!

هل قدر لهؤلاء الذين تملكوا قدرات عقلية فذة على مدى التاريخ، أن يحمل أولادهم وأحفادهم، ولو بعد أجيال وأجيال، قدراتهم المخيفة تلك ؟!

وضعت كتب السيد «كاستانيدا» جانبا ورحت ألتهم صفحات هذه الرواية

التهاماً، وعندما اجتاز الوقت منتصف الليل بقليل كنت قد انتهيت منها !

ثمة حقيقة هامة لابد من وضعها في الاعتبار... ان «اندرو لورانس» مؤلف رواية «تنبؤات عقل موروث»، يبني قصته على حقائق علمية أصبحت الآن شبه ثابتة ويقينية في عالم ما وراء النفس...فهناك دعامات علمية بنى عليها السيد لورانس تصوره، وهي دعامات استمدها من البحوث الحديثة والجادة حول موضوعات كانت ـ ولا تزال ـ تبدو للبعض منا شديدة الغموض... منها ـ على سبيل المثال ـ تلك القدرات الإنسانية الفذة التي لا تزال المعرفه الانسانية تقف أمامها حتى الآن في حيرة... هذه القدرات التي ثبتت بالتجربة فعلاً، وفي المعامل والجامعات ومراكز البحوث في الشرق والغرب، كانت البحوث، ولا تزال، قد أكدت أن الجسد الإنساني يملك من القدرات ما يفوق أي تصور لأي متفائل بالمستقبل منا!! ... من هذه القدرات التي ارتكز عليها لورانس مثلاً، القدرة على التخاطر؟، والتخاطر ـ أو التليباثي ـ هو القدرة على الحوار بين انسان وآخر يبعد كل منهما عن صاحبه مئات وربما آلاف الأميال... ولقد أصبح التخاطر علما معترفا به في كل جامعات الدنيا المهتمة بمثل هذه العلوم، وكان آخر ما قرأته عن هذا العلم مثيراً الى حد يبعث على الدهشة والتأمل طويلا... ذلك أن بعض أجهزة المخابرات ـ خاصة الأميركية والسوفيتية ـ تحاول الاستعانة بالتخاطر بدلا من أجهزة الإرسال أو الخطابات أو حتى الأحاديث، بعد هذا التقدم التكنولوجي المذهل الذي يطرأ يوما بعد يوم على أجهزة التجسس والتصنت والتصوير وما الى ذلك ... ويكفي أن يجلس عميل للمخابرات المركزية الأميريكية ــ سي. آي. ايه ـ في موسكو على سبيل المثال، وقد شحن رأسه بعشرات المعلومات الخطيرة والأسرار الرهيبة، وفي ساعة معينة من يوم معين، ويركز تفكيره في نظيره الجالس في نفس الساعة في واشنطن، حتى

يفضى اليه بما يحمل من معلومات دون أن يكتبها أو حتى يتفوه بها!!

من هذه القدرات أيضا قراءة أفكار الغير... وليست هذه الحقيقة في واقع الأمر جديدة، بل هي قديمة يرجع اكتشافها الى مئات السنين... عرفها الإنسان ولكنة لم يستطع أن يضع لها قواعد أو قوانين أو مواصفات خاصة لهذا الإنسان الذى يكفيه أن ينظر فى عينيك حتى يقرأ ما يدور فى رأسك !!... ثم هناك نظرية «العودة الى الحياة»!

ولقد شغلنى هذا الموضوع طويلا ولسنوات ... غير أننا لابد وأن ننبه، إلى أن المقصود بالعودة الى الحياة هنا، ليس «التناسخ» الذى تقول به بعض الديانات الآسيوية... واذا كان الدكتور «عبد الله سلوم السمرائى». فى كتابه القيم : «الغلو والفرق الغالية في الحضارة الاسلامية»، قد تعرض لهذا النوع من العلوم،عندما قسم هذا النوع من المعارف الى اربعة مراتب هى : النسخ والمسخ والفسخ ثم الرسخ ... فإنه يرى أن « النسخ» عند بعض الفرق الإسلامية الغالية، هو عودة الإنسان بعد الموت الى الحياة فى جسد انسان آخر... أما بعض المعارف الأوروبية، والأميركية بالذات، فإنهم يرجعون العودة الى الحياة، الى رغبة الانسان فى التكفير عن ذنوب ارتكبها فى حيوات سابقة. وهناك أيضا، مما اعتمد عليه « اندرو لورانس» بشكل أساسى فى قصته هذه، القدرة على التنبؤ!!... وربما كانت هذه القدرة بالذات، هى حجر الأساس، الى جانب القدرات الأخرى، فى قصته كلها !... والقدرة على التنبؤ مسأله قديمة قدم المجتمعات الإنسانية... وحكايات السحرة والعرافين تعرفها كل مجتمعات الدنيا بلا استثناء فى كل الحضارات والديانات والأبحاث العلمية والتى يتم بعضها فى سرية مطلقة ...ثم هناك دراسة تأثير الكواكب على الإنسان، ـ وهى دراسة لا تزال ـ قائمة على قدم وساق... ويكفى أن عرافا مثل «سيدنى عمر»

الشهير في الولايات المتحدة والذي يصدر في كل عام اثني عشر كتابا بواقع كتاب لكل برج... والذي تنبأ في اكتوبر عام ١٩٨٠ بأن اعتداء بالرصاص سوف يقع على الرئيس الامريكي رونالد ريجان، لكنه سوف ينجو من الموت، وان الرئيس السادات سوف يغتال في ٢٨ سبتمبر من العام التالي... وقد تحققت النبوءتان ووقع الاعتداء على ريجان لكنه لم يمت، واغتيل السادات في اليوم السادس من اكتوبر بفارق أسبوع واحد عن موعد التنبؤ الذي وضعه ذلك العراف الغريب ، و الذي يؤمن ، في نفس الوقت، بنظرية العودة الى الحياة ، وانه- في واقع الأمر- ليس سوى عمر الخيام ، الفلكي و الشاعر الفارسي المعروف ، و قد عاد الى الحياة في صورته الأمريكية هذه ... و لقد يكفي كل هذا كي ننتبه، إلى أن كل هذه العلوم التي كانت ذات يوم تبدو مستقلة عن بعضها البعض، تأخذ الآن مسارات تلتقي فيها ـ فيما يبدو ـ في مجرى واحد... هو نفس المجرى الذي يستعمله «اندرو لورانس» في قصته هذه:

«تنبؤات عقل موروث»!

إن أساس الرواية التي أقدمها اليوم الى القراء، يقوم على لقاء يتم بين رجل وفتاة انحدر كل منهما من صلب واحد من أعظم العرافين وذوي القدرات العقلية الفذة في التاريخ هما : رجل الدين الروسي الشهير «راسبوتين»، و«نوستراديموس» العراف الفرنسي الذي لا تزال تنبؤاته ـ حتى اليوم ـ محل دراسة ... واذا كان راسبوتين معروفا لنا جميعا كأسطورة من أساطير السيطرة والقدرات العقلية والجسدية التي تفوق الخيال مما جعله واحداً من شخصيات التاريخ القيصري في روسيا قبل الثورة البلشفية... فان «نوستراديموس» وان كان يحظى بشهرة أقل، إلا انه ترك وراءه هذا الكتاب ، الذي تنبأ فيه بموت جون وروبرت كيندي في القرن العشرين ...أي بعد أربعة قرون كاملة!!

وحتى لا يطول بنا الحديث عن نوسترا ديموس، فلعل ما جاء في دائرة

المعارف الأميركية «ميريت»،كفيل بأن يضع أمام عيوننا الخطوط الرئيسية لحياة هذه الشخصية الفذة!

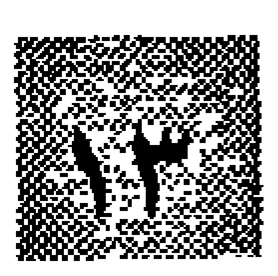
تقول ميريت :

«انه فلكي وطبيب فرنسي ولد في ديسمبر ١٥٠٣ ومات في يوليو عام ١٥٦٦ عن ثلاثة وستين عاما... حاز شهرة واسعة في كل أوروبا لمقدرتة على التنبوء بالمستقبل، وكتابه المعروف « الأجيال» طبع في عام ١٥٥٥، والذى وضعه وهو في الثانية والأربعين من العمر، يحتوى على عدد وفير من التبوءات المنظومة ـ ذلك ان نوسترا ديموس تعود ان يضع نبوءاته في قصائد شعرية ـ!! ـ ومثل غالبية العرافين، كان من الصعب في وقت من الأوقات ترجمتها او تفسيرها »

ثم أوردت دائرة المعارف مثلاً من هذه النبوءات خاصاً بالملكة اليزابيث الأولى، ولعل هذه النبوءة بالذات، تلفت النظر لوفرة الوضوح فيها بما لا يجعل الشك يتطرق إلى عقل أى منا... فالملكة اليزابيث الأولى هى ابنة الملك هنرى الثامن من زوجته الثانية آن بولين التى حكم عليها بالإعدام بتهمة الخيانة الزوجية حتى يتسنى له الزواج من أخرى تنجب له ولداً يرث العرش... كانت اليزابيث يوم أعدمت أمها صغيرة لا يتعدى عمرها السنوات الخمس، وكانت يوم صدور الكتاب فى الثانية والعشرين من عمرها، اذ انها ولدت فى عام ١٥٣٣، وكانت بالفعل شبه منبوذة فى البلاط الإنجليزى ، لم تكن قد اعتلت العرش بعد... بل كان وصولها الى العرش يبدو للمحيطين بالملك وبها ضرباً من ضروب المستحيل.

فماذا قال نوسترا ديموس ؟!

«أعداؤها سيصبحون خونة أكثر من أى وقت مضى، ستحمل حقبتها أعلام النصر، فى السبعين سوف تموت فى العام الثالث من القرن!!!»



الى هنا تنتهى النبوءة تاركة إيانا فى حيرة ودهشة... وربما فى ذهول . فلقد تحققت النبوءة بحذافيرها ، اعتلت اليزابيث الأولى عرش بريطانيا بعد ثلاث سنوات من صدور الكتاب، أى فى عام ١٥٥٨ وهى فى الخامسة والعشرين من عمرها... وكان عصرها من أزهى عصور الإمبراطورية البريطانية، فهو العصر الذى حول هذه الجزيرة النائية فى الشمال الغربى للقارة، إلى إمبراطورية لا تغرب عنها الشمس... لكن الأغرب من هذا ، انها ماتت بالفعل فى السبعين من عمرها ، وفى العام الثالث من القرن السابع عشر، أى فى عام ١٦٠٣. ولقد يحتاج الحديث عن التنبؤ والفلك ـ كعلم ـ الى الكثير، والحديث عن راسبوتين ونوستردا ديموس الى ما هو أكثر... الا ان الذى يعنينا هنا ، هو ذلك التصور العبقرى لكاتب نصف معروف هو « اندرو لورانس»، والذى بنى قصته عليه.

فماذا لو وجد رجل ينحدر من صلب نوسترا ديموس ـ حتى ولو لم يكن يعلم ـ و فتاة تنحدر من صلب راسبوتين، وقد ورث كل منهما قدرات جده الأكبر؟!

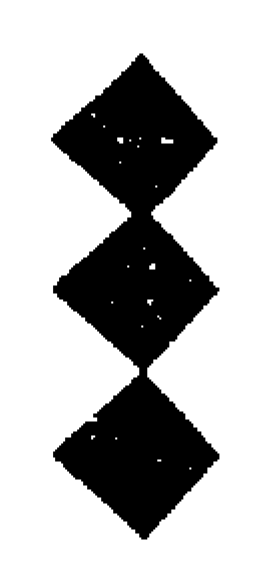
ماذا يمكن أن يفعلاه بالعالم اذا ما التقيا ؟!

ويخطو لورانس خطوة أخرى فى الخيال عندما تقول « ميلانى» بطلة الرواية:

« ان طفلنا سيصبح أقوى طفل فى العالم... فكر فى هذا جيدا ، لسوف يمتلك لأول مرة ما نملكه من قوة معاً. لسوف يملك الكون!! »

***

كان هذا هو الطريق الذى قادت فيه « ميلانى» ابنة الاثنين و العشرين ربيعاً، حبيبها ووالد صديقتها ، ورجل الاعمال الناجح «ديفيد دارستون» الذى يبلغ الثانية والأربعين من العمر.... طريق قاوم دارستون طويلا كى لا يخطو فيه، لكن قدره كان هناك وسط جبال أسبانيا الجرداء.



حادث فى مترو الأنفاق

كان مايكل دار تسون يجلس فى شرفة قصره الصغير المطل على البحر المتوسط فى «كان» بجنوب فرنسا، عندما انتابة ذلك الاحساس المفزع بأن زوجته «نورما» تواجه خطرا مميتا... لم يكن يعرف سر هذا الاحساس ولم يكن يريد ان يعرف!

كان قد امتلأ بالضيق من هذه الأحاسيس التى كانت تنتابه بين الحين والحين، بل، وتسيطر عليه سيطرة تفقده الاستمتاع بأجازه كتلك التى كان يقضيها على شاطىء البحر المتوسط !

غير انه فى واقع الأمر لم يكن يعطى لمثل هذه الآمور اهتماما كبيراً، فلقد كان لديه من الأعمال ما يشغله عن مثل هذه التوافه ... نهض من مقعده وسار فى الشرفة مطلا على مياه البحر المتوسط الممتد أمامه الى مالا نهاية، كما كان يريد ان يتلهى عن تلك الاحاسيس بالتفكير فى اشياء أخرى... كانت سارة - ابنته - حاملاً ، مات زوجها عندما ارتطمت طائرته أثناء هبوطه أرض المطار واحترق داخل الكابينة... لم يكن هو وحده الذى تنتابه تلك الأحاسيس أو تراوده تلك الافكار... فلقد حدث ذات يوم قبل ان تتزوج سارة، و فى أثناء مناقشة بينهما حول ديفيد زوجها ، ان قالت :

«إنى أحبه يا أبى ، أحب ديفيد حقا...ولسوف أتزوجه، لا أستطيع الا ان أفعل»!

كان يومها مشغولاً بصفقة هامة كان المفروض أن تتم على مستوى

كان يومها مشغولاً بصفقة هامة كان المفروض أن تتم على مستوى القارة...غير أن جملة سارة شدت انتباهه، سألها :

«ما الذى تعنينه يا جميلتى !!»

صمتت ساره ، انتبه إلى انها كانت شاحبة ، ربت على وجنتها وقد فاض به الحنان، رفعت اليه رأسها فهمس:

«ماذا بك يا سارة !!»

«لسوف يموت ديفيد قبل ان تولد ابنتنا!»

و لقد ضحك مايكل دارتسون يومها و هو يطيب خاطرها ، كان فى واقع الأمر مشغول الذهن بذلك الاجتماع الذى كان لابد و ان يستعد له لإتمام الصفقة... ولقد انقضت الليلة ، ومرت الأيام، و تزوجت سارة، حتى اذا كان مساء جمعهم ، الأب والأم والابنه، على العشاء ، فوجئ دارتسون بابنته تغمغم فى خوف شديد :

«لقد قام ديفيد بواجبه !»

كانوا قد تناولوا العشاء و جلسوا أمام المدفأة فالتفت نحوها متسائلا:

«ماذا تقصدين يا ابنتى؟!»

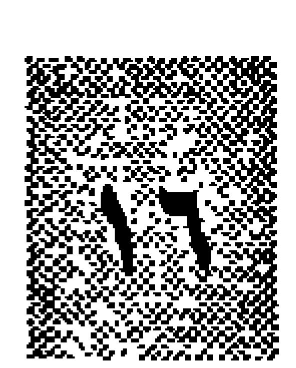
أطرقت ساره لثوان، ثم قالت فى شبه همس :

«إنى حامل !»

و لقد أسعده الخبر حقاً ، نهض اليها معبراً عن سعادته غير انها أردفت:

لذلك فلسوف يموت ، سوف يحترق داخل كابينة الطائرة يا أبى !»

كانت سارة فى تلك الليله شاحبة شحوبا عظيما ، و لأنه كان قد تعود من أبنته مثل هذه الهلوسات، فلقد راح يطيب خاطرها، كان ديفيد فى الولايات المتحدة، وكان موعد وصول طائرته فى اليوم التالى ...و لقد وصلت الطائرة إلى



مطار أورلى فى باريس حقا ، لكنها ، لخلل مفاجىء فى الأجهزة، ارتطمت بأرض المطار فى حادث مروع، احترق فيه ديفيد داخل كابينته !!

عندما بلغ الخبر دارتسون، صمم على أن يبلغ الخبر بنفسه إلى ابنته دون أى انسان آخر حتى أمها... و لقد كانت سارة فى البيت عندما وصل مايكل، ما أن رأته حتى هتفت:

«هل مات ؟!»

تقدم منها فاتحا ذراعيه فى حنان ... سارت نحوه حتى احتواها بين ذراعيه، انهمرت دموعها و هى تسأله :

« هل احترق داخل الكابينه ؟!»

«نعم !»

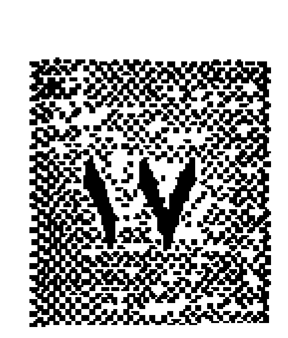
قالها فى اقتضاب غير أنها عادت تقول :

« ان الدور الآن على أمى!!»

قالت هذا وقد جفت دموعها و تحول وجهها الى تمثال من الشمع البارد بلا تعبير، نظر اليها مايكل دهشاً، كان فى حقيقة أمره حائراً، لم يكن يستطيع ان يكذّب ابنته، غير انه ارتجف و قد سرت اليه من نظراتها أنباء جديدة...صحبها الى مقعد و ثير فى ركن من المكان ، ما ان جلست عليه حتى رفعت رأسها نحوه قائلة:

«و بعد أمى ، سأموت وأنا أضع طفلتى!»

عبثا حاول مايكل دارتسون أن يبعد هذه الأفكار عن ذهنه، كان ـ الآن ـ موقناً أن زوجته، وكانت فى لندن ، سوف تلقى مصرعها فى هذا اليوم، كان يرغب فى سماع موسيقى قد تهدئ أعصابه ، حرك مؤشر الراديو ثم ضبطه على محطه كانت تبث موسيقى خفيفة، دلف الى الداخل كى يعد لنفسه كأساً



عينيه فى مياه البحر الزرقاء، ويترك أذنيه للموسيقى التى سرعان ما أرسلت خدراً الى أعصابه ارتاح له... ما أن انقضت دقائق، حتى قطع الإرسال، وجاء صوت المذيع و هو يبث خبراً عاجلاً ، كان الخبر يحمل نبأ انفجار مروع حدث فى إحدى محطات مترو الأنفاق فى العاصمة البريطانيه .

ارتج مايكل حتى الأعماق، اعتدل فى جلسته و قد داخله إحساس رهيب بأن «نورما قد ماتت فى هذا الانفجار» !!

***

قبل دقائق كانت نورما دراتسون تسرع إلى إحدى محطات مترو الأنفاق فى لندن وقد حملت مشترواتها للطفل القادم... كانت سعيدة، وكانت على موعد مع سارة ابنتها بعد نصف ساعة... تخطت الساعة الخامسة بدقائق، وازدحمت شوارع لندن بالموظفين بعد أن انتهت نوبة العمل وشحت سيارات الأجرة... لم يكن أمامها كى تلحق بموعد سارة سوى ان تستقل قطار المترو... ألقت بنفسها وسط الناس وقد اختلط بعضهم ببعض وتزاحمت الأرصفة... وصل القطار فاسرعت وسط الناس كى تلحق لها مكاناً فيه قبل أن يعود الى السير مرة أخرى... فجأة، تسمرت قدماها فى الأرض وانتابها فزع بالغ... أمامها، على بعد خطوات فوق الرصيف، كان ثمة لفافة يتخطاها الناس... تصاعد من أعماقها صوت سارة عندما غادرتها فى الصباح:

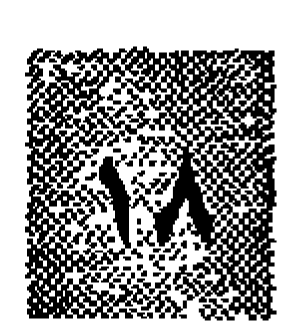
«مام... لا تلمسى لفافة موضوعة فوق الأرض!!»

قبلتها نورما باسمة :

« ألا تكفين عن هذه الخيالات يا سارة؟!»...

«ماما ... من فضلك !!»

طيبت خاطرها وربتت على وجنتها فى حنان:



« او كى...لن ألمس لفافة على الأرض! »

ولا تدرى نورما لم توقفت، وحتى ، وبدون تحذير من ابنتها ، ما كان لها أن تلمس لفافة لا تملكها... ثم هى فى عجلة من أمرها ، ولسوف يعود القطار الى المسير وعليها ان تلحق الباب قبل ان يغلق... فى لحظة، فى ثانية، فى برهة، رأت نورما يدا تمتد الى اللفافة... ثم هز الانفجار محطه المترو، وطار جسد نورما فى الهواء!

... ...

... ...

كان الوصف الذى طيرته وكالات الأنباء وبثته محطات الإذاعة لهذا الانفجار فى احدى محطات مترو الأنفاق فى العاصمة البريطانية رهيبا... عشرات الجثث، عشرات الجرحي، دمار... ولكن، لماذا تكون نورما زوجته بالذات ضمن هؤلاء الذين أودى الانفجار بحيواتهم !

نظر مايكل دراتسون الى آلة التليفون الموضوعة الى جواره، و كاد يرفع السماعة كى يسأل، لكنه أحجم ... انتابة ذلك الإحساس الغامض بالاكتئاب والحزن... لقد ظل حياته كلها يحلم بهذا القصر الذى اشتراه أخيراً وأنفق عليه الكثير حتى يحقق حلمة ... وكان على موعد، فى منتصف تلك الليلة، مع زوجته وابنته التى وافقت على ان تقضى معهما بقية شهور الحمل فى الريفييرا الفرنسية... ألقى بنفسه فوق مقعده وتعلقت عيناه بالتليفون ووجد نفسه يغمغم:

« سوف يدق الجرس الآن... كى تنعى لى سارة أمها »!

ودق جرس التليفون بالفعل !!...

وامتدت يده الى السماعة فجاءه صوت سارة من الطرف الآخر... فى صوت

أنكره على نفسه سأل قبل أن تقول شيئاً:

«هل كانت أمك فى هذا الانفجار الذى سمعت عنه فى الراديو؟!»...

«نعم!»...

«سأحضر فى أول طائرة!.»

قال هذا وأعاد السماعة الى مكانها دون كلمة!...ولا يدرى مايكل دراتسون من أين واتته تلك السكينة وهذا الهدوء، وبالرغم من حزنه البالغ الا ان المشكلة التى سيطرت على ذهنه فى تلك الساعات التى قضاها حتى وصل الى مطار هيثرو فى لندن هى : ان هذا الذى حدث ليس كل شئ، وان هناك فى الطريق اليه، الكثير من الأحداث ... راح يتساءل: هل تتحقق نبوءة ابنته فتموت بالفعل وهى تلد؟!... شئ غريب فى رأسه كان يؤكد له هذا الزعم، بل ويطالبه بأن يستعد لما هو أكثر!!

أحس كأنه ظل طوال عمره يصعد جبلا شاهقاً، حتى اذا وصل الى القمة، سقط من فوق الجبل!... ما الذى يمكن ان يحدث؟!... ما هذا الذى ألم به فجأة؟!...ولماذا؟!

راحت الأسئلة تتفجر فى ذهنه بلا أجوبة، غادر الطائرة فى مطار هيثرو وكانت سارة فى انتظاره وبجوارها فتاة فى مثل سنها ذات عينين بالغتى التأثير... عندما احتوى سارة بين ذراعيه كانت ترتجف... قدمت له صديقتها :

«هذه ميلانى ياأبى!»

التفت نحو الفتاة فأردفت سارة :

«انها كل من تبقى لى فى الدنيا معك !!»

سأل ابنته عن ترتيبات الدفن والجنازة وما الى ذلك، فقالت له ان ميلانى قامت بكل شئ وليس عليه ان يقلق!!

وكانت ميلانى تعرف مكان المقبرة، وكانت قد اتفقت مع الحانوتى والقسيس

وكأنها فرد من العائلة... تساءل بينه وبين نفسه : كيف عرفت ميلانى مكان المقبرة، إن سارة نفسها لم تزرها مرة ولا تعرف عنها شيئا... عندما جلس الجميع الى مائدة العشاء قالت سارة :

«لابد لى ان أخبرك الآن بكل شئ يا أبى !»

توقف مايكل عن تناول الطعام ونظر الى ابنته فى دهشة، خيل إليه أن ثمة شيئاً غريباً قد تغير فى سارة ... ليس صوتها فقط وانما ملامحها ايضا!!

« سارة... إلا زلت تؤمنين بتلك الرؤى التى تواتيك بين الحين والحين؟! »

« انها ليست رؤى يا أبتاه! ».

«يا عزيزتى...... »

قاطعته :

«ألم أخبرك بوفاة أمى ؟!»

« ان الأمر لا يعدو أن يكون مصادفة ! »

« ليكن الأمر كذلك، ولكن ألا تريد أن تسمعنى؟! »

التفت نحو ميلانى، وكانت تجلس على يساره، فواجهته عينان سددتا اليه نظرة تقول باختصار: «صدقها». أشاح عنها وخوف عربيد يجتاح صدره... أراد ان يتلهى عما انتابه فالتفت نحو سارة :

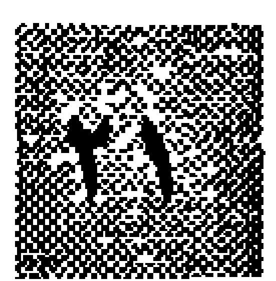
« انى اسمعك يا سارة! »

« ان المآسى لم تنته بعد ... لسوف ألد طفلة جميلة، عيناها زرقاوان فى لون مياة المحيط، لكنى سوف أموت أثناء الولادة! »

امتدت يده كى تربت على يد سارة وهو يقول فى حنان :

«ما الذى يدفعك الى التفكير فى مثل هذه الأمور ! »

« انه ذلك الحلم الذى قصصته عليك منذ شهور، والذى رأيت نفسى فيه وانا أدفن!... »



« سارة... ان مثل هذه الأحلام ......»
قاطعته:
« حسن ... سوف أصف لك المقبرة !»
دق قلبه بعنف... فى السنوات الأخيرة، وعندما درت عليه أعماله مبالغ طائلة من المال، وتكالبت الشركات ـ من كل أنحاء العالم ـ تطلب رأيه وتستعين به، أراد ان يحقق حلما خاصا... ان تكون للعائلة مقبرة تشبه مقابر جنوا الشهيرة، ولقد تكتم الأمر حتى عن زوجته، كانت المقبرة تبدو له وكأنها مثواه الأخير الذى لا بد وان يكون حسب رغبته تماما...
«دادا»
هكذا نادته سارة، فالتفت نحوها كي تقول :
«انها تبدو مثل غابة من الشواهد التى تحمل أسماء الراحلين، وهى فى جملتها إيطالية المعمار ولسوف يكون قبر أمى فى الركن الأيمن قريبا من تمثال للملاك جبريل!»
لم ينطق مايكل بحرف...أحس فى تلك اللحظات أنه يريد ان يهرب، لا من سارة، وانما من نظرات ميلانى التى كانت تتمسّح فى وجهة فيشعر لها بوقع كالقبل!!...القى بالفوطة فوق المائدة ونهض قائلا :
« سوف آوى الى فراشى فلقد كان اليوم مرهقا!»
قبل ان يمضى جاءه صوت ميلانى آمرا:
« اذا احتجت الى شئ، نادى على!»
قال مجاملا :
«ولكنك بالقطع متعبة!»
«إنى هنا لمثل هذا الأمر!»

كانت جملتها موحية، وكانت صريحة، وكانت غريبة... فانطلق الى غرفة نومه لا يلوى على شئ !

في صباح اليوم التالى التقى بميلانى على مائدة الإفطار وحدها، سألها:

«أين سارة؟!»

«إنها متعبة، ولابد لها من الراحة كى تستطيع حضور الجنازة!»

دس عينيه فى طبقه وطلب جريدة الصباح وقرأ عناوين الصفحات الأولى وكان خبر الانفجار فى مقدمة تلك العناوين... غير انه وقد مضت دقائق، أدرك انه يهرب من مستحيل، وانه لابد وان يتجاذب أطراف الحديث مع ميلانى... إنه رجل أعمال، لم يتعود مناقشة الأمور الفلسفية أو الغيبية تلك...كل ما يعرفه هو حركة رأس المال فوق سطح هذا الكوكب، المنابع والمصبات... القنوات الموصلة والقنوات المضللة، العملاء الذين يلهثون وراءه بحثا عن استشاراته... ثم نجاحه الغريب الذى لم يكن يتوقعه، طاف بذهنه ذلك الخاطر فالتفت نحو ميلانى:

«هل تؤمنين بهذه الأحلام التى تزور سارة بين الحين والحين؟!»!

قالت ميلانى:

«أنا لا أؤمن بها ... إنى أعيشها!»

عاد يدس عينيه بين سطور الجريدة فى يأس،قالت ميلانى:

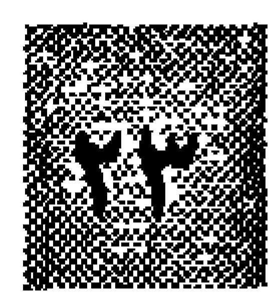
«ماذا تفعل عندما يستشيرك أحد عملائك فى صفقة!»

«إنى ألم بظروف الصفقة وأفكر فيها!»

وجد نفسه يرد دون إرادة فانتابته الدهشة، وعادت ميلانى تسأله:

«وكيف تفكر؟!»

هكذا أوقعته ميلانى فيما لم يكن يريد ان يقع فيه، أراد أن يراوغ لكنه وجد نفسه يقول الحقيقة:



«فى أحيان كثيرة أقدم استشاراتى من منبع غامض!»

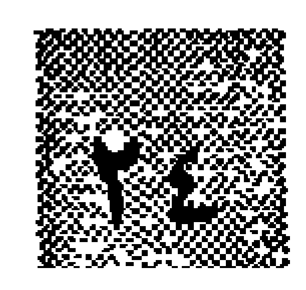
هذا هو سر الأسرار و قدس الأقداس فى حياته العملية ونجاحاته التى أدهشت الكثيرين، كان الأمر غريباً الى الحد الذى دفعه لأن يهرب منه، فى أعماقه... كان ثمة إحساس يبزغ من عمق اللاشعور كالضوء ينبثق وسط ظلام المعارف التى تعود عليها، وهو فى البداية، عندما استلهم هذا الإحساس الغامض فى صفقة اسندتها اليه شركة كبرى، كانت الأرباح التى جنتها الشركة من وراء استشارته أكبر بكثير مما كان متوقعاً..و هكذا، وفى حرص شديد، ورغم أنة كان يدرس أية صفقه يستشيره فيها عميل أو شركة، كان فى النهاية، يتبع ذلك الإحساس الغامض الذى كان يقوده، ربما، الى عكس كل ما كانت تصل اليه دراساته العلمية و تشير اليه!!

و لقد أخفى هذا الأمر تماما عن الجميع، حتى عن زوجته...غير أنه، وهو جالس الآن الى ميلانى و قد لاذ بالصمت، أحس بحفيف نظراتها فوق وجنته فالتفت نحوها مدفوعا بقوة قاهرة...كانت ميلانى تنتظر ان يكمل إجابته، أو كانت وكأنها تعريه حتى من أفكاره، هتف ناهضاً:

«يكفى أن ألم بظروف الصفقة ، وأن تكون الأوراق تحت يدى كلها صحيحة...ثم... ...»

حاول ان يلبس الأمر ثوب الدراسة الخالصة فلم يستطع ، أخيراً قال منهيا الأمر :

«ثم أجد نفسى بعدها أقدم رأيى !»



أحس انه بحاجة الى فنجان قهوته فعاد الى المائدة، لاذ بالصمت لكنه شعر بنظرات ميلانى تمطره بالاسئلة،ظلت على صمتها الصاخب هذا فعاد يقول بعد أن رشف رشفة من فنجان قهوته:

«ربما كان الأمر احساساً مختلطا بخبرة لابأس بها !»

سألته:

«ربما ؟!!»

لم يرد، دس عينيه فى جريدة الصباح فانقطع الحديث !

xxx

عاد من المشرحة مضعضع الحواس منهكا...عندما وصل الى هناك للتعرف على الجثمان، نصحه الطبيب ألا يراها، فسأله :

«وكيف أتعرف عليها اذن!»

«الم تكن هناك فى الجسد علامة مميزة!»

لم يكن فى حاجه الى جهد كى يتذكر ذلك الوشم الأحمر على فخذها الأيسر، والذى كان يمثل زهرة متفتحة...رفع الطبيب الغطاء عن الفخذ الأيسر و كانت الزهرة هناك، لكن لونها كان الآن كابيا، كانت الزهرة قد ذبلت...

استقبلته ميلانى عند عودته قائلة:

«ان ساره لاتزال فى غرفتها!»

هز رأسه دون ان ينظر نحوها، كان الآن يهرب من عينها، لاحقته:

«لقد اتصلت بالحانوتى و رتبت مراسم الجنازة فى صباح الغد!»

«حسن...أشكرك يا ابنتى!»

«ولقد حجزت ثلاثة مقاعد على طائرة المساء الى كان!»

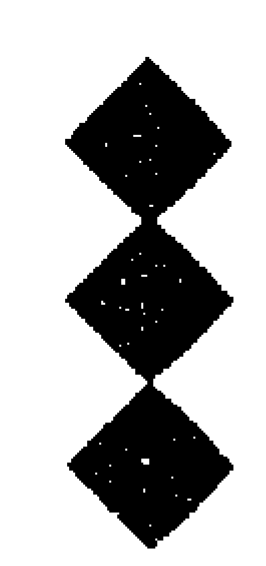
«ثلاثة مقاعد؟!»

هكذا هتف و هو يلتفت نحوها دهشاً، كان معنى هذا أنها انتوت أن تسافر معهما الى الريڤييرا، دقت ميلانى نظراتها فى عينه قائلة:

«نعم...ثلاثة مقاعد!»

أحس أنه يرتجف...كانت ثمة لغة غامضة تبثها نظراتها فى عقله، أحس بيقين أن مفردات هذه اللغة كانت تقول : «سأكون دائما معك»!!

فى تلك الليلة...لم ينم مايكل دارتسون حتى مطلع النهار!!!



الموت عدواً كالموت كسلاً

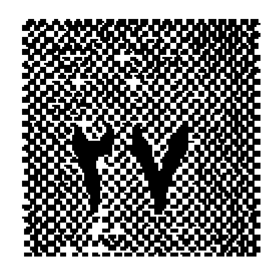
انتهت مراسم الدفن كما رسمتها ميلانى تماماً... تم كل شئ فى سهولة ويسر، أقلتهم السيارة إلى البيت وكان عليهم الاستعداد للسفر إلى «كان» فى نفس اليوم ... لم يتحدث مايكل كثيراً مع «سارة» أو «ميلانى»... لم يكن هناك ما يمكن أن يقال ... غيبت الأرض جسد الكفاح والنجاح معاً، كان يحب نورما، بل إنه لازال يحبها ذلك الحب الهادىء الصافى البعيد عن التوترات والمشاكل، وافقت سارة على أن تقضى بقية شهور الحمل فى الريڤييرا الفرنسية:

« على أن أدفن بجوار أمى بعد الولادة!»...

هكذا قالت له فأراد أن يبعد عنها شبح تلك الفكرة التى سيطرت عليها سيطرة لا فكاك منها، لكن عينا ميلانى أوقفته بنظرة!!...

هاهم يصلون إلى القصر، إلى الحلم الذى أثثته نورما بذوقها الخاص، كل ركن فى البيت الكبير كان يحمل بصمة من بصماتها... عندما دلف إلى القصر مع سارة وميلانى أحس بأن كل شئ قبض الريح، حصاد الهشيم هذه الدنيا - الموت عدواً كالموت كسلاً سواء بسواء، داهمته الذكريات بلا رحمة، طوال ربع قرن من الزمان وهو يكافح من أجل مستقبل مريح، شاركته نورما هذا كله، فرحت معه وانتابها القلق لقلقه، واختارت معه القصر، وعندما أصبح لديهما رصيد يكفى لأن يعيشا فى يسر ما تبقى لهما من حياة، ذهبت نورما وتركته وحيداً!

وحيداً؟!!



توقف أمام الكلمة... وكان لابد من التفكير في كل شئ من جديد، كان لابد من وضع الأمور في نصابها. اكتشف في لحظة أنه إنما كان، بأسلوبه هذا في التفكير، يهرب من ميلاني، ومما قالته له بالأمس.

«سارة... لابد أنك متعبة وتريدين الراحة...»

«كنت أفكر في تناول طعام العشاء في غرفتي يا أبي!»

تذكر الآن أن عيني سارة لم تدمعا طوال اليوم، وأنهما كانتا تبدوان مثل فيروزتين لامعتين في وجه بالغ الشحوب.

«هل أطلب لك الطبيب؟!».

أجابت ميلاني عنها :

«لا تخش شيئاً، إن سارة على مايرام، ولسوف أنام معها في نفس الغرفة!»

«إذن، فعلينا أن نأمر بإعداد الغرفة من جديد!»

«لقد فعلت هذا بالأمس، وتحدثت إلى مدام لاكلير بالتليفون من لندن!»

التفت نحو ميلاني في دهشة، كاد يسألها لكنها أردفت وكأنها تجيب عن سؤاله :

«تحدثت مع سارة في الأمر فطلبت مني أن أتصرف!»

لم يكن أمامه سوى الصمت. صعد إلى غرفته وحاول أن ينام دون جدوى، كان مجهداً متعباً وكان في حاجة إلى النوم بعد أن قضى ليلته السابقة مسهداً... هاجمه قول ميلاني بأن استشاراته التي كان ينصح بها عملاءه كانت تأتي من منبع خاص، قلب الأمر في ذهنه، غادر غرفة النوم إلى الشرفة، ولم يجد أمامه بداً من وضع الأمر ـ بحقيقته ـ أمام عينيه، فاتجه نحو غرفة مكتبه!

أغلق الباب بالمفتاح وأخرج كل ملفاته من المكتبة وراح يراجعها، وكان اكتشافه مذهلاً، ها هو الآن أمام الحقيقة سافرة، فماذا بعد ؟!

اكتشف مايكل دارتسون أنه نجح في ٩٥٪ من استشاراته بدرجة فاقت تصوره وتصور عملائه، وأن هذا النجاح كان يدر عليه مزيداً من الدخل ومزيداً من العملاء... كما اكتشف أن هذه العمليات التي نجحت، هي تلك التي كان يتبع فيها إحساسه الغامض ذاك الذي كان يأتيه من مصدر مجهول... وأن الخمسة في المائة الباقية، والتي فشلت أو نجحت نجاحاً جزئياً، هي تلك العمليات التي اعتمد فيها على الأرقام وحركة السوق المالية وخبرة ربع قرن من الزمان قضاها في هذه المهنة!... أزاح الأوراق جانبا وكان ضوء الفجر يتسلل إليه عبر النافذة التي تطل على البحر المتوسط... ما معنى هذا ؟!

كان هذا هو السؤال الذي سيطر على تفكيره تماماً... استبد به القلق وداهمته عينا ميلانى الثاقبتان... إنه لا يعرف عنها شيئاً، لا يعرف من هي وكيف التقت بابنته وكيف صادقتها... لا يعرف سوى أن اسمها ميلاني وأنها جاءت من إحدى ولايات الغرب بالولايات المتحدة الأمريكية... هي في الثامنة عشرة من عمرها، قوية الشخصية ذات جمال خاص وجسد رقيق... فلماذا لا تكون ميلاني هي التي توحي لابنته بتلك الأفكار الشريرة عن موتها أثناء الوضع... غادر مكانه وقد استبد به القلق، اخترق بهواً صغيراً في الطابق العلوي ووصل إلى غرفة ابنته، هم بأن يدق الباب كي يسأل عنها فتذكر أن ميلاني تشاركها الغرفة فكاد يعود أدراجه لولا أن الباب فتح فجأة وبدت ميلاني في روب رقيق ألقت به فوق جسدها فبدت وكأنها مخلوق من عالم آخر.

«لماذا ترددت في الدخول؟!»

هكذا سألته ميلاني فتلعثم ثم تمتم :



« تذكرت أنك تشاركينها الغرفة! »

افسحت له الطريق قائلة :

«إنها تريد أن تراك! »

خطا إلى الداخل وكانت سارة تجلس على مقعد مجاور لنافذة تطل على الحديقة ... انحنى وقبل رأس ابنته وأحاط كتفها بذراعه وأحس الآن، والآن فقط، كم يحب هذا المخلوق.

« كيف حالك يا سارة! »

« أنا بخير يا أبى، لولا أن الفتاة ظلت طوال الليل تركلنى! »

ابتسم وهو يركع إلى جوارها ويملأ عينيه بوجهها:

« أرى أنك مصممة على أنها فتاة! »

« لست مصممة... إنها فتاة! »

« على كل... فحركة الجنين تنبئ عن صحة جيدة! »

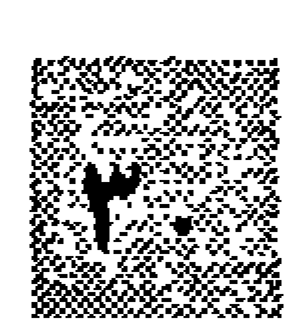
« سيزورنا الطبيب مساء اليوم! »

«هل تريدين منى أن أتصل به!! »

« لقد فعلت ميلانى ذلك مساء الأمس، وحدد لنا موعداً فى السابعة مساء اليوم! »

كان هذا فوق قدرته على الاحتمال. التفت نحو ميلانى وكانت هذه تقف غير بعيدة وقد سددت إليه نظراتها الثاقبة... من أين علمت ميلانى باسم الطبيب؟... قبل أن تسافر زوجته إلى لندن كى تأتى بسارة اتفقا مع دكتور روجيه أن يتولى أمر ابنته بعد حضورها، اربدّ وجهه فأمسكت سارة بيده قائلة فى صوت ضعيف :

«أرجو ألا يضايقك هذا! »



«ولماذا يضايقنى؟!»

«لأنه ستكون هناك بعض المتاعب، لقد أخبرتك بذلك من قبل !»

لم يشأ أن يرد عليها، كان فى حاجة، مرة أخرى، إلى أن يعيد التفكير فى كل هذا... غادر غرفة سارة وبدل ملابسه وتناول إفطاره واندفع إلى الشاطئ لايلوى على شئ... غير أنه بعد ساعة وبعض الساعة، اكتشف أن أفكاره كانت تدور فى دائرة مفرغة، دائرة تبدأ بميلانى وتنتهى إليها، فمن هى ميلانى هذه؟!... بعد ساعة وبعض الساعة عاد إلى البيت، وكان فى حاجة ماسة إلى النوم!

***

فى المساء جاء الطبيب فلم يشأ أن يدخل معه أثناء الكشف على سارة وانتظره فى غرفه مكتبه... بعد انتهاء الكشف جلس إلى الدكتور روجيه وقدم له كأساً وانتظر أن يحدثه الرجل بأمر ابنته لكنه لم يفعل، ضايقه صمت الطبيب فمال نحوه وكان قلقا وهو يسأله :

« هل تعتقد أننا سنواجه بعض المتاعب أثناء الوضع يادكتور؟!»

استأذن الطبيب فى أن يدخن فقدم له سيجاراً فاخراً، نفث دكتور روجيه الدخان وقال فى نغمة غامضة:

« إن الجنين بخير، والحمل نفسه على أحسن وجه!»

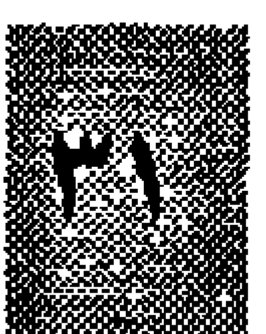
« وماذا عن ابنتى؟!»

« إن قلب سارة ضعيف للغاية مسيو دارتسون!»

ولم يكن هناك ما يقال!

***

مرت أسابيع منذ زيارة الطبيب الأولى. كان مايكل يحاول فيها الفكاك من



أسر تلك الأفكار التي سيطرت على عقله سيطرة لافكاك منها... كان يقرأ صحف الصباح فلا يجد فيها ما يشد انتباهه، حتى صفحة سوق الأوراق المالية وحركة السندات والأسهم فوق سطح كوكب الأرض لم يكن فيها جديد... اكتشف أن الصحف لا تنقل سوى أخبار الخلافات والمشاجرات والصراع والحروب والدمار والكوارث، راح يتساءل إن كان الإنسان قد خلق كي يتشاجر ويختلف ويحارب... عشرات المرات راح يقول لنفسه ان زوجته نورما كانت هي الأخرى ضعيفة القلب لكنها حملت في سارة ووضعتها دون عذاب أو خوف من مضاعفات فلماذا سارة بالذات، لماذا ابنته؟!

ذات يوم جاء دكتور روجيه كي يعود سارة، وكالعادة، كان في انتظاره في غرفة المكتب... قدم له كأساً وأشعل له سيجاراً وانتظر، ولما طال صمت الطبيب قال:

«ألا ترى أنه من المستحسن أن تنقل سارة إلى المستشفى ».

أجاب الطبيب :

«لم يحن الوقت بعد، لكن وجودها في المستشفى من الآن سوف يوفر علينا الكثير من العناء؟!»

« وماذا لو رفضت سارة ؟!»

« إنه اقتراحها شخصياً !!!»

هكذا جاء رد الطبيب فهتف :

« هل هناك ما يضايقها ؟! »

«انها لم تحدثني عن شئ كهذا!!»

« إذن فلماذا ... ... »

تململ الطبيب في قلق فتوقف مايكل عن الحديث ولم يكمل سؤاله...

مضت ثوان لزما فيها الصمت معاً حتى جاء صوت الطبيب وكأنه نذير، قال :

«إن سارة مؤمنة إيمانا عميقاً بأنها ستموت أثناء الوضع، وأنها لن ترى ابنتها!».

«وهل تعتقد أن هذا سوف يحدث يا دكتور ؟!»

«أنا لا أستطيع الجزم بشئ... ولكن يجب علينا، والأمر كذلك، أن نحتاط... فلو أن هذا حدث فلسوف تحتاج الطفلة لرعاية من نوع خاص!»

مرة أخرى ... لم يكن هناك ما يقال !!

***

عند العودة من المستشفى كانت ميلانى تجلس إلى جواره فى السيارة... انتبه إلى أنه سوف يبقى معها فى البيت وحدهما... أدهشته تلك السعادة الغامضة التى اجتاحته لمجرد تفكيره في الأمر، رفض إحساسه رفضاً قاطعاً. لقد كانت ميلانى أصغر من ابنته بعام كامل، وعندماجلست إلى جواره فى الشرفة كانت الشمس تميل نحو الغرب، وكانا يتناولان فنجاناً من الشاى، سألته ميلانى فجأة :

«هل أنت خائف؟!»

نظر إليها ولم يجد لديه رداً فلزم الصمت، عادت تسأله فى إلحاح :

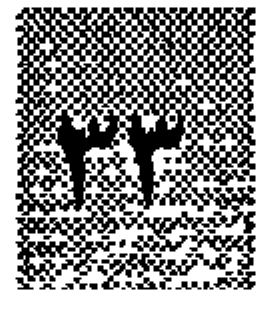
«هل أنت خائف مما سوف يحدث لسارة ؟!»

«إنى خائف من أسلوبها فى التفكير... إنها تظن أنها ستموت خلال أسبوع وربما ساعات!»

«لكنها ليست خائفة!»

هم بالحديث لكن ابتسامة ميلانى أوقفته:

«لقد جهزت سارة نفسها تماماً لهذه اللحظات القادمة!»



«إن ما يؤلمنى أنى عاجز عن مساعدتها !»

«ولكنها ليست فى حاجة إلى المساعدة! »

مال نحوها وقد احتدم غضبه:

« هل تصدقين حقاً أن شيئاً من هذا سوف يحدث لسارة؟!»

« ألا تصدق أنت!»

أحس ـ والغضب يجتاحه اجتياحاً ـ أن ميلانى تعريه من ملابسه... كانت نظراتها مصوبة إليه فى تركيز مخيف، طالما لهث عدوا من أفكاره تلك طوال الأسابيع التى انقضت، كابر مغاضبا وهو يقول :

«لا ... لا أصدق!»

«إذن فأنت تظلم نفسك!»

يالهذه الفتاة الغريبة، إنها تملك قهرة فذة على تركيز أفكارها فى كلمات قليلة تبدو وكأنها شحنت بالديناميت... هم بالحديث وعندما دق جرس التليفون إلى جواره، امتدت يده فى لهفة واختطف السماعة فجاءه صوت الطبيب :

«لقد أصبحت جداً!»

التصق لسانه بسقف حلقه وحملق فى ميلانى وكانت تبتسم... عاد صوت الطبيب مردفاً:

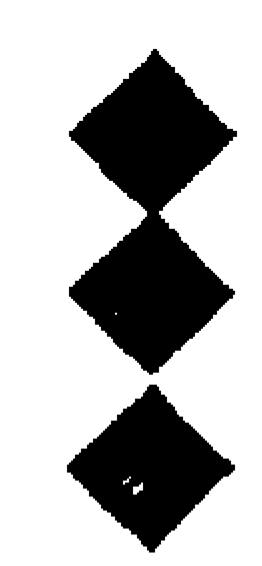
«إنها طفلة شديدة الجمال زرقاء العينين... إن عيونها فى لون مياه المحيط!»

ارتجف حتى نخاع عظامه فلقد كان الطبيب يردد كلمات سارة وكأنها لقنته إياها!!

«وكيف حال سارة؟!»

وساد الصمت على الطرف الآخر فأيقن أن ابنته قد رحلت، بعد فترة عاد الطبيب الى الحديث قائلاً:

«انها لم تتعذب كثيراً، ولقد تم الأمركله في سهولة ويسر!»
اعتصر الألم قلبه اعتصاراً وتدافعت الدموع إلى عينيه، قال بصوت مختنق:
«هل رأت الطفلة قبل أن ترحل ؟!»
«لا ... لم ترها!»
أعاد السماعة فى بطء وكان الدمع يملأ عينيه... رأى وجه ميلانى مترقرقاً، وسمعها تقول:
«لقد رحلت سارة... أليس كذلك؟!»
هز رأسه إيجاباً وكان الدمع يتساقط من عينيه، بعد لحظات سمعها تقول:
«لقد كنت أعلم هذا ونحن نتناول الشاى...!»
وكان هذا فوق احتماله، فانفجر باكيا!!



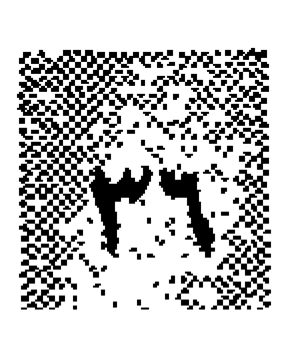
عينان فى عمق المحيط

ماتت سارة ابنة مايكل دارتسون أثناء الوضع ولم تشاهد ابنتها... تماما كما تنبأت من قبل بموت زوجها وموت أمها ثم موتها... جفت دموعه بعد دقائق وراح يحملق فى مياه البحر الممتدة أمامه... حتى ولو كان الأمر كذلك، فهى مجرد مصادفات لا أكثر ولا أقل... حنت عليه ميلانى وعزته بكلمات رقيقة، بدأت، منذ هذه اللحظة تتصرف معه وفى البيت وكأنها زوجته، هى لم تفعل شيئا غريباً، ولم تتعد حدودها فى التعامل معه أو فى البيت، لكنه ذلك الإحساس الخفى الذى ينتاب المرء حيال إنسان يشعر بالانتماء إليه... هكذا كانت ميلانى!

فى صبيحة اليوم التالى كان لا يزال فى فراشه وقد قضى ليلة مسهدة، عندما دق الباب ثم فتح دخلت ميلانى وهى ترتدى ذلك الروب الشفاف الذى يجعل لجمالها طعماً خاصاً ... كانت تحمل صينية الإفطار، راح يرقبهافى إمعان ودهشة، نعم ... لم يكن يتخيل عندما أحس أنها تتصرف كزوجة له، أن إحساسه سوف يتحول إلى واقع مادى. فهكذا كانت تفعل نورما فى الأيام الخوالى، مشيتها، حركتها، وحتى أسلوبها فى إلقاء تحية الصباح!

«صباح الخير يا عزيزى... انفض عنك الكسل وانهض لتناول الإفطار!»

نفس الكلمات بنفس الحروف كانت تقولها نورما... ولابد أن سارة أخبرت



ميلانى بكل شئ عنه وعن زوجته وحياته... وضعت الصينية وانصرفت فى هدوء، كان فى حاجة للتفكير فى مراسم الدفن ومصير الفتاة التى ولدت وكيف ستكون حياته فى المستقبل... ما كاد يمد يده إلى صينية الإفطار حتى وجد خطاباً على مظروفه كلمتان: « إلى أبى! »، امتدت يده إلى المظروف وفضه، وكان يحوى خطاباً من سارة :

«والدى العزيز...

«الآن وقد حدث ما حدث، لعلك تقتنع أن ثمة قوى خفية كانت تعمل من خلالى... ولعلك بعد كل هذا تقتنع الآن أنك تحمل نفس القوى وربما أكثر، لأنى ورثت قواى عنك... كل ماأطلبه منك ـ وأنا أعرف أنك ترفض هذا تماما، ولكن، من أجل ذكراى ـ ان تسلم نفسك لميلانى، دعها تقودك إلى هذا العالم الغريب، ولن تندم. أحب أن يطلق على ابنتى اسم «ايما» كما أوصى بأن أدفن إلى جوار أمى! »

وكان الامضاء : « ابنتك المحبة : سارة»

كان الخط خط سارة والأسلوب أسلوب سارة... وكان ـ وعيناه تجريان فوق السطور ـ يكاد يسمع صوت سارة، صوت ابنته التى ماتت... فهل سيصاب بالجنون؟!... رشف رشفة من فنجان القهوة السوداء ثم قفز إلى الحمام وبدل ملابسه وهبط إلى البهو، كانت ميلانى هناك.

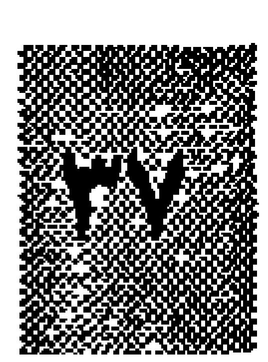
«لماذا لم تتناول إفطارك»؟!

رماها بنظرة وهو يقول :

«علينا أن ننظر فى ترتيبات الجنازة ومراسم الدفن! »

« إن كل شئ قد أعد بالفعل! »

رماها بنظرة متسائلة فأضافت باسمة وكأنها تتحدى أفكاره :



«حتى الطائرة... لقد اتفقت مع الطيار أن يعود بنا في المساء من لندن!»
مرة أخرى لم يكن هناك ما يمكن أن يقوله.

***

عندما ألقى بنظرته الأولى إلى وجه حفيدته، راعه أنه رأى صورة طبق الأصل لذلك الوصف الذى وصفتها به سارة قبل أن تموت... الجمال الباهر والعينين الزرقاوين اللتين تبدوان فى عمق مياه المحيط... كانت طفلة، رضيعة، لم يكتمل من عمرها يوم واحد... لكن عينيها كانتا تشعان بريقاً أخاذاً... لكنه بريق يجذبك إليه دون أن تستطيع المقاومة...

«إنها طفلة غير عادية!»

هكذا جاء صوت ميلانى خافتاً وكانت تقبض على ذراعه بيسراها... هكذا كانت تفعل نورما تماما، لم يشأ أن يرد عليها، انتزع نفسه من عينى حفيدته وغادر الغرفة وراح يفكر فيما يمكن أن يفعله بهذه الطفلة.

«لا تقلق!»

كانا قد غادرا المستشفى وخرجا إلى الحديقة فالتفت نحو ميلانى دهشاً، غمرته ابتسامتها الواثقة وهى تقول وكأنها ترد على هواجسه:

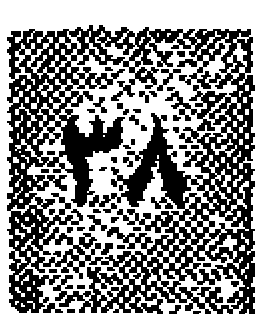
«سأقوم أنا برعايتها، فلقد أخذت دروساً فى التمريض ورعاية الأطفال!»

عندما جلست إلى جواره فى السيارة سألها:

«هل قرأت خطاب سارة ؟!»

«لا ... ولكنى أعرف مابه!»

اندفعت السيارة تشق طريقها إلى القصر، وكان لابد أن يبدل ملابسه، وأن تبدل ميلانى ملابسها أيضاً استعداداً للرحلة التى سوف تبدأ بعد ساعة وبعض الساعة... ضغط مفتاح البنزين وفى ذهنه سؤال واحد راح يتردد بلا توقف:



ما الذى تريده منه هذه الفتاة الجالسة إلى جواره؟!

«أريدك، كما طلبت منك سارة، أن تتبعنى !!»

وكان هذا فوق احتماله، ضغطت قدمه أكثر فوق مفتاح الوقود فتزايدت سرعة السيارة فى الطريق إلى القصر... لم يكن مايكل دارتسون قد فاه بكلمة، فكيف عرفت ميلانى ما كان يدور بذهنه؟!

«لابد لك يامايكل أن تدرك أنى أقرأ أفكارك مثل كتاب مفتوح!»

كان حديثها رداً مباشراً ـ مرة أخرى ـ عما كان يدور فى ذهنه ... أحس أنها تعريه حتى من ملابسه. التفت نحوها وسألها ساخراً :

«هل تقرأين أفكارى حقاً؟!»

«كما تستطيع أنت أن تقرأ أفكارى، وبنفس السهولة»

«ولكنى لم أفعل!»

«لأنك لا تريد!»

ران الصمت عليهما حتى لاح لهما القصر من بعيد ومن خلفه مياه البحر... استدارت ميلانى نحوه وقالت :

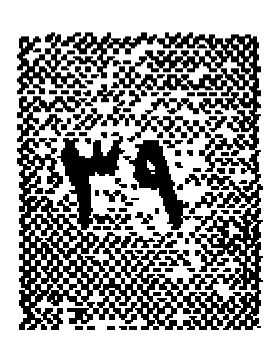
«سوف يصبح علينا، فى الأسابيع القادمة، أن نرسل « إيما » إلى جديها لوالدها!»

«ولكنك قلت أنك سوف تعتنين بها!»

«هذا صحيح، ولكن أمامنا رحلة إلى الريف الفرنسي علينا أن نقوم بها معاً!»

«ومن أدراك أن آل ديفيد سوف يقبلون إيما!»

«لقد تحدثت إليهما بالتليفون مساء الأمس، ولقد رحبا ترحيبا حاراً ببقائها معهما!»



لم يشأ أن يستمر معها فى الحديث، هذه الفتاة ذات الثمانية عشر ربيعا تتصرف وكأنها رئيس دولة يعرف شؤون دولته ولا يترك شيئاً للظروف أو الصدف... انتهيا من استبدال ملابسهما وعادا إلى السيارة فى الطريق إلى المستشفى!

«إن كل شئ جاهز الآن، إنهم فى انتظارنا!»

«وهل نصحب إيما إلى لندن اليوم ؟!»

«بالطبع لا... ليس قبل بضعة أسابيع!»

ران الصمت مرة أخرى لثوان قالت بعدها ميلانى :

«ليست إيما طفلة عادية يامايكل، لقد ورثت عن أمها قدرات فذة، كما ورثت أمها عنك نفس القدرات... لكن الغريب فى الأمر أن المنبع وهو أنت، يرفض الاستجابة لما منحته له الطبيعة!»

ولم يكن لديه ما يستطيع، أو حتى، يريد قوله، فلزم الصمت!

***

عندما دلف إلى القصر فى المساء وكانت الساعة تشير إلى الثامنة والنصف، كان متعبا منهكاً... أراد أن يسأل ميلانى ماذا هى فاعلة ومتى سترحل لكنه أحجم... تناولت معه طعام العشاء وعندما صحبته إلى غرفة النوم وجد البيجاما فى مكانها فوق الفراش، ووجد الفراش جاهزاً لاستقباله بنفس الترتيب الذى كانت نورما تفعله... ذلك ترتيب لا يعلم به أحد سواه. وحتى سارة، لم تكن تعلم شيئاً عن هذا!!

عندما آوى إلى الفراش مالت عليه ميلانى وقبلته فى وجنته هامسة :

«أحلاما سعيدة!»

عاوده واحد من تلك الأحلام التى تعودها لكنه لم يكن يلق إليها بالاً...

حلم فى تلك الليلة أن صديقه «أرمان» مهندس الديكور الذى صمم له ديكور قصره هذا، قد مات منتحراً، ولقد استيقظ من النوم منقبض الصدر، دخلت ميلانى بصينية الإفطار فى الموعد تماماً، كان ثمة جريدة فوق الصينية، ما ان قلب صفحاتها وهو يشرب قهوة الصباح، حتى طالعه نبأ وفاة «أرمان» منتحراً، وسقطت الجريدة من يده!

«لقد كنت تعرف... فلماذا تنزعج؟!»

هكذا قالت ميلانى، وكانت جالسة على مقعد قريب ترقبة فى إمعان... رفع رأسه نحوها دهشاً فأردفت :

«أنا مؤمنة أنك كنت تعرف أن مسيو أرمان سوف ينتحر!»

هتف بها مغيظا:

«لقد كان حلماً... مجرد حلم يا ميلانى!»

«لو أنك صدقت أحلامك، كما ينبغى لك أن تفعل، ونبهته، لما قتل نفسه!»

هذه الفتاة المجنونة أو الملعونة تحمله الآن وزر انتحار الآخرين، صاح:

«ماذا تريدين بالضبط؟!»

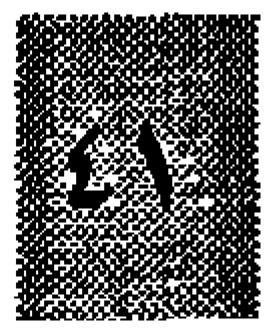
«سوف تعرف عندما أطير بإيما إلى لندن!»

***

كان لابد، لكى تأخذ ميلانى إيما، من موافقته... ووجد نفسه يوافق ويوقع على الأوراق... بعد عشرة أيام سمحوا لهما باستلام الفتاة، أخذتها ميلانى من المستشفى إلى المطار وكان هو فى صحبتها... قبل أن تصعد إلى الطائرة قالت له :

«سوف أغيب أسبوعاً فلا تقلق!»

وعندما أقلعت الطائرة وراحت تختفى فى الفضاء أمام عينيه، انتبه إلى أنه



سلم حفيدته لفتاة لا يعرفها، ولا يعرف من تكون وعلى سطح الكرة الأرضية ملايين من الفتيات يحملن اسم « ميلانى»... فماذا لو اختفت ميلانى بحفيدته؟!... ماذا يفعل، وماذا يقول لو أنه أراد أن يفعل؟!

***

عندما عاد إلى البيت أحس برغبة طاغية فى أن يكون وحده، لارفاق ولا أصدقاء ولا حتى خدم... هوفى حاجة ماسة كى ينفرد بنفسه، وكان أول ما فعله لحظة وصوله إلى القصر، أن أعطى جميع الخدم أجازة لمدة أسبوع كامل...

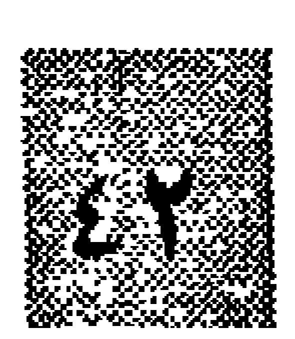
هكذا أصبح وحده... هو الآن يستطيع أن يفكر فى حرية، أن يقول أو يفعل ما يشاء، وكان أول ما خطر بباله هو تفتيش متاع ميلانى!!

كان فى اليوم الأول لوصولهما إلى القصر، سارة وميلانى وهو، قد أعطى لميلانى الغرفة الشرقية حيث شمس البحر المتوسط الدافئة... فماذا لو أنه بحث عن سر هذا الذى يحدث، ولابد له من العثور على شئ يقوده أو ينير له الطريق... عندما وضع يده على مقبض باب الغرفة، انتابه إحساس غامر بالخسة، فكيف يفتش متاع فتاة غائبة؟!.

فلم يدخل وعاد أدراجه!!

***

مضى يومان... وخرج مايكل دارتسون فى رحلة بالسيارة طاف بها شوارع المدينة وسار بحذاء البحر وملأ صدره بهواء الشاطئ المنعش... مضت ثلاث ساعات أحس خلالها بالجوع فقرر العودة إلى القصر وتجهيز وجبة خفيفة... كان الآن ـ بلا شك ـ أحسن حالاً، أحس أنه يستطيع معالجة الأمر دون مضاعفات، وما عليه ، إذا ما عادت ميلانى من لندن، إلا أن يطلب منها الرحيل، وأن يعتذر لها لأنه لن يستطيع أن يتبعها كما تريد أو كما أرادت سارة!... ما أن



اقترب من القصر حتى سقط قلبه بين ضلوعه، كان باب البيت الخلفى مفتوحاً، وكانت هناك سيارة شركة إصلاح المصاعد... وفوق هذا وذاك كان عمال الصيانة يخرجون ويدخلون ويعملون بهمة ... فكيف؟!... بل ولماذا ؟!... كيف دخلوا إلى البيت ومن دعاهم ومن سمح لهم؟!

كان قبل أن يخرج، ولأنه لم يتعود الوحدة كثيراً، قد طاف بكل نوافذ البيت وأبوابه وأحكم إغلاقها جيدا... ثم، من قال إن المصعد فى حاجة إلى إصلاح أو صيانة... هو يذكر أنه فى الصباح لم يستعمل المصعد كعادته، بل هبط الدرج وكان يرتدى روباً على اللحم وإحساسه بالحرية يعطيه راحه هائلة... نعم هو لم يستعمل المصعد فى ذلك اليوم لكنه حتى الأمس كان كل شئ فيه على ما يرام... أوقف سيارته وهبط منها واتجه إلى رئيس العمال الذى كان يصدر أوامره لهذا وذاك...

« هل أستطيع أن أسأل كيف دخلتم إلى البيت؟! »

كان السؤال يحمل شبه اتهام فرماه الرجل بنظرة غاضبة مدمدماً:

« ومن تكون أنت؟! »

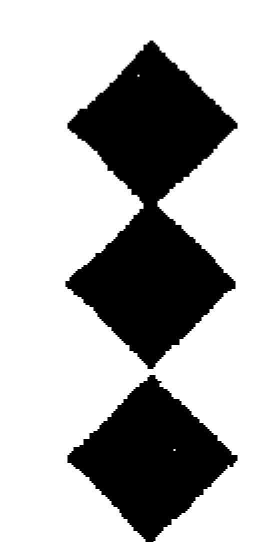
« أنا صاحب البيت! »

«حسن ... لابد والأمر كذلك أن تعرف أن التى أبلغتنا والتى فتحت لنا الباب واستقبلتنا هى ابنتك! »

«ابنتى ؟! »

«ربما هى ليست كذلك لكنها فتاة ذات عينين واسعتين وشعر أحمر ! »

إذن فلقد عادت ميلانى من لندن قبل الموعد!!



راســــبـــــوتـيـن !

قالت له إنها ستغيب أسبوعاً لكنها رحلت منذ ثلاثة أيام فقط فَلِم عادت...
هم بدخول القصر عندما أردف رئيس العمال :

«إنكم محظوظون! »

«وكيف كان ذلك ؟! »

هكذا سأل ، فأجاب الرجل:

«إن الخلل الموجود فى المصعد كان كفيلا بقتل أول من يستعمله! »

كاد مايكل دارتسون أن يصرخ... اندفع إلى البيت بحثا عن ميلانى...كان عمال المصعد فى الدور الأرضي منهمكون فى العمل فسألهم عن الفتاة التى فتحت لهم الباب، أشار أحد العمال نحو الدرج الموصل إلى الطابق العلوى قائلاً:

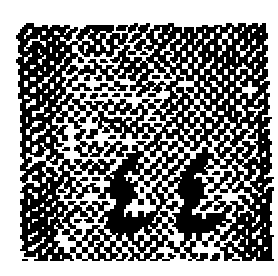
«لقد أدخلتنا وصعدت إلى الطابق العلوى! »

«ماذا كانت ترتدى تلك الفتاة! »

كان السؤال غريبا ... هو نفسه لا يعرف لماذا وجه سؤالاً كهذا الى الرجل أو حتى كيف؟!

«لا عليك، لا عليك إنى أعتذر! »

هكذا قال للعامل الذى هتف:



«ليس هناك ما يوجب الاعتذار أيها السيد... لقد كانت ترتدى روبا فى لون الورد ، به نقوش حمراء تجعلها مثل حلم!!»

حملق فيه مايكل ذاهلا، أردف الرجل :

«هذا هو ما أحسست به فلا تغضب!»

ولم يكن مايكل غاضبا ، كان مجنونا ، فالروب الذى وصفه الرجل كان يخص ابنته سارة... فهل عادت سارة إلى الحياة؟!

راح مايكل دارتسون يتفقد الدرج صعوداً وقد انتابته رجفة جعلت الرجل يتتبعه ببصره، حتى إذا اختفى مايكل فى الطابق العلوى، التفت العامل إلى زميلة قائلاً :

«دعنا ننتهى من العمل فى هذا البيت!»

***

اندفع مايكل الى غرفة سارة، فتح الباب وخطا إلى الداخل وقلبه يدق بعنف أوجعه وجعله يضع يده فوق صدره كمن يريد أن يمنع قلبه من الوجيب... خطوة هى داخل الغرفة تسمر بعدها في مكانه مشدوها... كان روب سارة ملقى فوق الفراش وكأن صاحبته قد خلعته لتوها... ظل فى مكانه لبرهة ثم انتابته حالة جنونية دفعته إلى تفتيش البيت غرفة غرفة ... حتى المطبخ دخل إليه وبحث فيه، ولم يكن هناك أثر لأحد... كما لم يكن هناك أثر يدل على وجود أحد غيره!... انتهى العمال من عملهم ورحلوا ... وأصبح مايكل دارتسون وحيداً مرة أخرى، فداهمه الخوف مثل إعصار لا يبقى ولا يذر.

ذلك أنه أحس أن ثمة إنسانا معه فى البيت، هناك مخلوق يسعى معه فى الممرات والغرف والمطبخ وحتى فى الحمام، وكان يشعر بوجود هذا الشخص اللامرئى... وهو موقن يقيناً لا يعرف مصدره بأن هذا المخلوق ليس سوى ميلانى، فأين هى؟! ... هل عادت كى تلاعبه وتخيفه وتسيطر عليه؟... كان

الآن يقف في بهو القصر وحيداً، كل شئ حوله ساكن خامل صامت، ولكن...
فوق هذا السكون والخمول والصمت، وربما في أعماقه، حركة هائلة وضجيج
يكاد يدمر حياته... سار إلى البار وجهز لنفسه كأساً لعله يهدأ قليلا... رفع
الكأس الى شفتيه فدق جرس التليفون الملون بجواره فوق البار، أعاد الكأس
دون أن يرشف منه، ورفع السماعة فجاءة صوت ميلاني مرحاً :

«هالو مايكل... لماذا لم تأخذ كأسك؟!»

ارتجف بعنف... ليس بمثل هذه الصورة، تمالك نفسه وقال في صوت جاهد أن
يكون طبيعياً:

«من أين تتحدثين؟!»

«من لندن بطبيعة الحال!»

«هل أنت متأكدة؟!»

«إن جد إيما يقف إلى جواري.وهو يريد التحدث إليك بشأن الصغيرة!»

أليس في هذا ما يفوق الخيال؟!... جاءه صوت الرجل من الطرف الآخر:

«كان حزننا بالغاً لوفاة سارة مستر دارتسون...لكن سعادتنا فاقت حزننا
عندما استقبلنا إيما الصغيرة!»

لم يجد مايكل ما يقوله...كان لسانه ملتصقا بسقف حلقه في عناد
وخوف... عاد صوت الرجل يسري :

«مستر دارتسون ... هل تسمعني؟!»

«نعم ... نعم...»

«أعلم أن الحزن غالب عليك، ولكن ... لتكن واثقا من أن إيماسوف تلقى
منا العناية الكافية!»

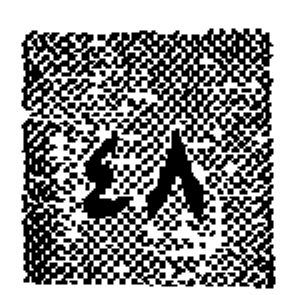
قال الرجل هذا وساد الصمت لثوان جاءه بعدها صوت ميلاني :

«لعلك تطمئن الآن إلى أنى لم أختطف الصغيرة! »
صعد قلبه الى حلقه فاختنق صوته :
«ميلانى ... لقد حدث اليوم شئ غريب! »
«هل انصرف عمال المصعد؟! »
إذن فلقد كانت تعرف...
جاء صوتها مستطردة:
«كانت هناك إحدى قطع الآله قد استهلكت رغم أن المصعد مازال جديداً، ولقد وصلت حالتها إلى درجة الخطر، ولقد لاحظت ذلك وأنت تصعد بالمصعد مساء الأمس إلى غرفة النوم... لذلك، كان علىّ أن أبلغ عمال الصيانة لإصلاحه... وحمداً لله أنك لم تستعمله صباح اليوم! »
كان كل هذا فوق التصور، بل فوق الاحتمال... فلقد أيقن مايكل دراتسون أنه لن يستطيع سؤالها كيف عرفت كل هذا فهو يعرف الإجابة... وكان من العسيرعليه ـ حتى الآن، ورغم كل ما حدث ـ أن يسلم بهذا الذى تقوله ميلانى أو قالته ابنته... وكان صوته جافاً وهو يسأل ميلانى :
«من الذى فتح الباب لعمال الصيانة؟! »
«أنا!!! »
صرخ :
« هل تسخرين منى؟! »
« أنت تعلم أنى لا أجرؤ على ذلك! »
«إذن فكيف تتواجدين في لندن وكان فى نفس الوقت ! »
ضحكت ضحكة رقيقة وقالت فى حنان من يهدهد طفلاً :
«سوف أعود يوم الخميس القادم فى طائرة الساعة السادسة! »

هم بالصياح لكنها أردفت كمن تقطع عليه الطريق:
«ولسوف يكون أمامنا متسع من الوقت لنناقش هذه الأمور!»
أمسك بكأسه وقذف به في فمه مرة واحد... كان مضطرباً، وكان غاضبا، وكان حائراً أيضاً!
«إنك لم تتناول بالأمس طعام العشاء !»
فى صوت أجش رد عليها :
«هذا صحيح!»
«لا تنس أن تتناول عشائك الليلة... ستجد فى الثلاجة قطعاً من اللحم البارد مع بعض الجبن ... أما الخبز فلسوف تجده فى مكانه المعتاد. وهناك زجاجة نبيذ سوف تنعشك برودتها!»
«نعم ... نعم...»
كان يريد أن ينتهى من الأمر كى يتفرغ للتفكير، وكى يستعيد وحدته ونفسه معاً.
«لا تنس أن تغلق نافذة غرفة النوم فلسوف يكون الجو عاصفاً عندكم الليلة!»

***

ولقد كانت الليلة عاصفة بالفعل... كان قد أطاع ميلانى وأغلق النافذة جيداً ولم يكن يستطيع إلا أن يطيع. وطوال الليل وهو بين اليقظة والنوم وثمة خاطر يلح عليه فيحرمه من النوم... كان يريد أن يفتش غرفة ميلانى ومتاعها، كان واثقا كل الثقة من أنه سوف يجد ضالته فى غرفتها... لكن المشكلة التى واجهته كانت : ماذا لو عرفت ميلانى بالأمر؟!
نهض من فراشه وهبط إلى البهو وتناول كأساً وراح يلوك الأمر فى ذهنه...



فماذا ـ حتى ـ لو عرفت ميلانى؟!... أليس من حقه أن يعرف كل شئ عنها ما دامت تعرف كل شئ عنه ؟!... كان إحساسه الموجع بأنه لن يستطيع منها فكاكا يعذبه، وكان يظن أنه لو عثر على ضالته المجهولة فى غرفة ميلانى فلسوف يذوب العذاب ويختفى القلق وينعم لأول مرة منذ أن رأى تلك الفتاة بالراحة. هم بالحركة لكنه تذكر شيئاً جعل الدماء تتجمد فى عروقه. تذكر أنه عندما كان فى المستشفى جاءوه بتلك الأوراق للتوقيع حتى يتسنى لميلانى أن تتسلم الطفلة، قرأ اسم حفيدته ... قرأ: «إيما نوستردام؟!»

«من الذى اختار هذا الاسم؟!»

هكذا سألها فأجابت:

«إنها الراحلة بنفسها، ولقد ملأت أوراق المستشفى وكتبت الاسم بخط يدها!»

فلماذا اختارت ابنته اسم نو ستردام دون أن تختار اسم عائلة ديفيد؟!!... أو حتى اسم دارتسون؟!

راح يقدح ذهنه ويقلب الأمور فى رأسه لعله يجد حلا لهذا اللغز دون جدوى، ومرة أخرى انتابه ذلك الإحساس الغامر بأنه سوف يجد مفتاح السر فى غرفه ميلانى... فاندفع يصعد الدرج مسرعاً، كان قد اتخذ قراره بأن يقتحم الغرفة وأن يبحث عن ضالته فى متاع تلك الفتاة الغريبة الأطوار!!

***

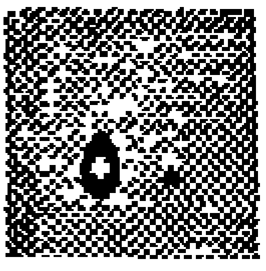
دخل إلى الغرفة مطمئناً... كان قد أغلق الأبواب والنوافذ وأحكم كل شئ حتى يتحرك بحرية ... ماكاد يخطو داخل الغرفة حتى اصطدمت عيناه بصندوق قديم موضوع فوق حامل الملابس... داهمه إحساس بأن الصندوق قد وضع ها هنا خصيصاً كى يراه، اتجه نحوه وامتدت إليه يداه وفتحه فإذا رائحة غريبة



تنبعث منه، رائحة لم تعرفها أنفه من قبل... ولا يدرى لماذا تمتم معلقا على الرائحة بقوله : «هذه رائحة الزمان!»

لم يكن في الصندوق سوى اسطوانتين من الورق... كان الورق يبدو غريبا قديماً، كان وكأنه صنع فى زمن غابر... التقط إحدى الاسطوانتين وفردها أمام عينيه كى تطالعه خريطة لشجرة عائلة، اجتذبه الأمر تماماً فكأنه الآن يشاهد أحد أفلام السينما التاريخية المليئة بالمغامرات، ارتاح إلى إحساسه هذا وبدأ يقرأ . كان اسم العائلة « جورجورييف»، وكانت العائلة تنتمى إلى عميدها: «جريجورى الفيموفوفتش راسبوتين!»...

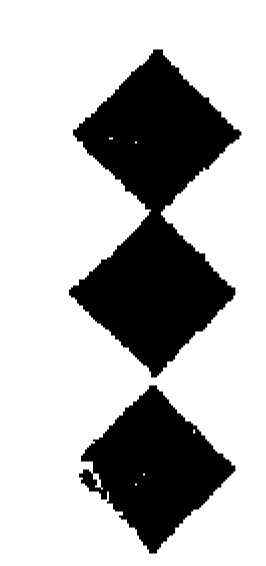
دق قلبه بعنف راح يتزايد كلما جرت عيناه على الورقة... هذه شجرة عائلة الكاهن الروسى الأشهر « راسبوتين»... الغريب فى الأمر أن تاريخ الميلاد والوفاة الموضوعين بجانب اسم راسبوتين كانا ١٨٧١ ـ ١٩١٦، وهو موقن أن راسبوتين لقى حتفه فى عام ١٩١٦. وكان من بين أسماء الشجرة «جريجورى جورجورييف» عضو الأمم المتحدة المعروف. هل هذا معقول؟!... هل يستطيع أن يصدق ما يمسكه بيديه ويقرأه بعينيه؟!... ولماذا تحتفظ بشجرة هذه العائلة التى طبقت شهرة عميدها الآفاق. أحس وكأن قواه تخور لسبب غامض، تمالك نفسه وألقى بالخريطة من يده كى يتناول الاسطونة الأخرى من الصندوق القديم... وما أن فردها حتى فغر فاه وجحظت عيناه دهشة ورعباً. كانت الشجرة الأخرى لعائلة تسمى « كابولا » ١٤٦٩ ـ١٥٢٧ وإذا كانت الشجرة الأولى تبدأ فى القرن التاسع عشر، فإن الشجرة الثانية كانت جذورها تمتد إلى القرن الخامس عشر ... وكان أحد أعضاء هذه الشجرة هو «نيكولو مايكفيمى» عضو السوق الأوروبية المشتركة!... أما هناك، عند المنبع، فكان اسم «مايكل نو ستردام!» وسقط قلبه فى قدميه!.



لم يكن مايكل دارتسون ممن يهتمون بأمور التنجيم أو السحر... لكنه كأى واحد من الناس، كان يطالع ما يكتب عن غرائب هذه الأشياء فى الصحف، وكان قد قرأ كتاباً أو اثنين فى السحر والتنبؤ... سقطت الخريطة من يده وانغمس فى التفكير، وجد نفسه ـ دون أن يدرى السبب الذى قاده إلى هذا ـ يفكر فى السحر والسحرة... كان السحرة ذات يوم يحكمون هذا العالم!... منذ قدماء المصريين وفى المجتمعات البدائية كان الساحر هو الآمر الناهى الذى لا ترد له كلمة... وكان مما قرأه عن راسبوتين يعرف أنه ساحر ومتنبئ معاً، أنه كان طاغية يقرأ أفكار الآخرين ويعرف ماذا يريدون... تذكر شيئاً فالتقط شجرة راسبوتين، جرت عيناه على الأسماء ، بل قفزت نظرته إلى آخر الشجره كى يجد هناك اسم « ميلانى»!

فهل ميلانى من أحفاد راسبوتين؟!...

أحس مايكل دارتسون أن أفكاره بدأت تسير فى الطريق الصحيح... أعمل الفكر قليلا وعاد، كالملدوغ، يلتقط شجرة «نو ستردام»... نظر إلى الاسم فتذكر اسم حفيدته... ألم يكن هذا هو اسمها الذى قرأه فى المستشفى؟!... ألقى بالخريطة ونهض كوحش حبيس، إنه يعرف نوستردام هذا ... قرأ عنه كثيراً وكتبت عنه الصحف أكثر... هذا هو الرجل الذى تنبأ بأن اليزابيث الأولى سوف تعتلى عرش انجلترا فى وقت كانت الفتاة تعيش فيه منبوذة فى أحد قصور أبيها هنرى الثامن... إنه ذلك العراف الفرنسى الذى تنبأ منذ أربعة قرون بموت جون وروبرت كيندى اغتيالاً!... فما علاقة ميلانى بهذه العائلات... كان هذا هو السؤال الذى لابد له من العثور على إجابة عليه!!



نوستردام الجد الأعظم

توقف، عقله عن التفكير وقد خطر له خاطر بدا له غريبا في أول الأمر، لكنه عندما أمعن النظر فيه، هدأت نفسه قليلاً... أن اسمه «دارستون»، وهذا الاسم إذا ما قرأ بالعكس فلسوف يصبح «نوسترد» أي «نوستردام» أو «نوسترا داموس» فكلها إضافات تتبع اللغات ولا علاقة لها بالاسم الحقيقي الذي هو اسمه!... ماهذا ؟!... وكيف؟!... أحس فجأة، في ذروة انفعاله، أن أحداً يشاركه الغرفة. جمد في مكانه وخشي أن يلتفت حتى لا يتحقق ظنه المفزع هذا... ثانية بعد ثانية وهذا الإحساس لديه يتأكد، ولم يكن هناك مفر، استدار نحو الباب... وكانت ميلاني تقف هناك!!

***

كانت تبتسم، ليس من السهل، خاصة بالنسبة لرجل في ثقافة مايكل دارتسون، أن يخلط الحقيقة بالخيال أو العلم بالشعوذة... ولكن، ها هو يجد نفسه أمام واقع لا مفر من مواجهته، واقع مركب يختلط فيه كل شئ بكل شئ... ومنذ دقائق كان يتحدث مع ميلاني في لندن، كما تحدث إلى والد ديفيد زوج سارة... ولقد كان ، عندما قرر أن يقتحم غرفة ميلاني، قد أمن كل شئ في البيت، الأبواب والنوافذ... لكنه، قبل أن يصعد إلى الطابق العلوي، أراد أن يتأكد من المكالمة، وهل كانت من لندن حقاً أم أن في الأمر خديعة؟!...

طلب عاملة التليفون وسألها إن كانت مكالمة خارجيه قد جائته قبل دقائق بحثت العاملة لثوان ثم ردت عليه بأن مكالمة من لندن قد وصلته منذ دقائق. وأعطته رقم تليفون آل ديفيد، قائلة إن المكالمة أتته من هذا الرقم... وهكذا اطمئن، ومهما كانت قوى ميلانى خارقة، فهل تستطيع أن تعبر المانش، ثم تعبر القارة من الشمال إلى الجنوب حتى تصل إلى حيث هو فى «كان» فى مثل هذا الوقت الخاطف الذى لا يتعدى النصف ساعة؟!...

ولكن ها هو المستحيل قد تحقق، وها هى ميلانى تقف بباب الغرفة وعلى شفتيها المكتنزتين تلك الابتسامة الآسرة، وعيناها تشعان ذلك البريق الذى يأخذ بألبابه، ويجعله راغبا فى إلقاء نفسه فى أغوار تلكما العينين وما وراءهما من أسرار!!...

وهو، عندما التفت ووجد ميلانى تقف بالباب، لم يعنه أن تكون هذه هى ميلانى حقاً أم أن الأمر محض خيال... كان كل ما يعنيه أنها ضبطته فى غرفتها يعبث فى أشيائها الخاصة، بل ربما فى أسرارها التى لا تريد أن تُطلع أحداً عليها . أراد أن يعتذر، لكنه أومأ نحو شجرة عائلة كابولا متسائلا:

«لم كل هذا الاهتمام بعائلة كابولا ؟!»

«لقد تعودت الاهتمام بشجرات العائلات الهامة فى التاريخ!!»

لم تكن ميلانى غاضبة، قالت ما قالته وهى تتقدم منه ببساطة وكأنه كان فى غرفته يعبث فى أشيائه وممتلكاته الخاصة... ولم يكن هناك مفر من الاعتذار، قال :

«إنى أسف لاقتحامي غرفتك... لقد كنت... ... »

قاطعته ميلانى وهى تنظر إلى الصندوق المفتوح وشجرتى العائلتين قائلة :

«إنك مهتم بما كتبته لك سارة فى خطابها... وأعتقد أنه قد آن الأوان لكى تعرف الحقائق!»



هز كتفيه وكأن الأمر لا يعنيه، لكنها تقدمت من الصندوق قائلة :

«هل تريد أن تعرف المزيد؟!»

«لقد ألقيت عليها نظرة!»

«لكنك لم تقرأ كل شئ بدقة!»

أمسكت بشجرة عائلة نوستردام وفردتها أمام عينيه :

«لابد أنك سمعت عن نوستراديموس؟»

«أليس هو عراف البلاط الفرنسى فى القرن الخامس عشر؟!»

«اذن فلقد سمعت عنه!»

«نعم!!»

«إنه جدك!!»

فاقت دهشته تلك الدهشة التى اعترته عندما وجد ميلانى بباب الغرفة... وفى حقيقة الأمر، فلقد كان مايكل دارتسون فى تلك اللحظات يحس أنه يعيش واحداً من أحلامه تلك الغريبة التى كانت تداهمه بين الحين والحين دون أن يوليها أى اهتمام...كان كل شئ يبدو لامعقولاً بكل المعانى، فلم لا يجارى ميلانى فى هذا اللامعقول؟!

« إنك لا تصدق!»

هكذا قالت فأجاب فى حدة:

« إنه ضرب من الجنون فأنا أعرف أجدادى حتى الجد الـ .... »

« انظر هنا!»

أشارت ميلانى مقاطعة إلى أعلى الشجرة... هناك، كان اسم حفيدته «إيما» مكتوبا بالرصاص، وتحته مباشرة اسم سارة، وتحت اسم سارة ، طالع اسمه بوضوح «مايكل دارتسون»!... مرة أخرى جرت عيناه إلى جذور الشجرة حيث كان اسم «مايكل نو ستردام»

« أمن أجل هذا أوصت سارة بأن يكون اسم ابنتها « إيما نوستردام؟! »
« نعم... من أجل هذا! »
« وهل تعتقدين حقا أني أنحدر من صلب هذا العراف الشهير؟! »
تنهدت ميلاني في حيرة وهي تحملق في الشجرة المرسومة والأسماء المكتوبة... راح يرقبها وكانت الحيرة لأول مرة مرتسمة على ملامحها... ساد الصمت لثوان قالت ميلاني بعدها:
«في وقت من الأوقات اختلط عليّ الأمر إلى الحد الذى جعلنى أظن أنى أخطأت الطريق! »
« وكيف كان ذلك؟! »
أشارت بإصبعها نحو الجذور قائلة :
« انظر، لقد وجدت هنا ثلاثة أسماء هم : «نو ستردام»، ثم «كوبر نيكوس»، ثم «كاجيلو سترو!! »
صاح مستنكراً :
« كاجيلوسترو ؟! »
« هل سمعت عنه؟! »
لم يكن فى حاجة إلى الرد... إن قراءاته المتناثرة فى تاريخ أوروبا أنبأته بقصة هذا المشعوذ الإيطالى الذى أوهم الناس أنه يستطيع أن يحول النحاس إلى ذهب!... وأنه يستطيع أن يمد فى عمر الإنسان إلى مالانهاية!... وكأنما كانت ميلانى تتابع أفكاره قالت :
«لم يكن مشعوذا كما أطلقوا عليه، إن محاولة تحويل النحاس إلى ذهب بدأت قبل كاجيلو سترو بعده قرون عندماحاول علماء العرب أن يفعلوا ذلك! »
«ولكن ... ... »

استطردت مقاطعة:

«أما عن محاولة إطالة عمر الإنسان... ألاترى أن اكتشاف الأدوية وعلاج المرض يفعل هذا!»

«ليكن ما تقولين... ولكن كوبرنيكوس لم يكن عرافا، إنه فلكى شهير ومحترم عاش فى القرن الخامس عشر، ولا علاقة به بهذة الأمور التى تبحثين فيها!»

«ونو ستردام»؟!

غمغم وقد استبدت به الحيرة :

«لقد قرأت مقالا فى إحدى المجلات أورد كاتبه فيه، بعضاً من أشعاره التى تنبأ فيها ، منذ أربعمائة عام، بقيام الحربين العالميتين الأولى و الثانية، كما تنبأ باغتيال جون وروبرت كنيدى فى الولايات المتحدة التى لم تكن قد اكتشفت بعد !!»

فى هدوء وثقة قالت ميلاتى:

«إنه جدك الأكبر!!»

***

عندما يقرأ الإنسان عن واحد من هؤلاء المشاهير الذين تجوب شهرتهم الآفاق والأجيال أيضاً... يضع لكل منهم صورة تتفق وتصوره ... ولقد كان مايكل دارتسون إنساناً عادياً يفعل نفس الشئ الذى يفعله الآخرون... كان يرسم لنوستراديموس بالتحديد صورة تكاد تكون حية فى وجدانه... وهو لم يتوقف يوما أمام هذه الصورة ولم يناقشها مع نفسه، بل تقبلها ببساطة من يتقبل حدوتة أو أسطورة سمع بها أو قرأها فى كتاب!!... ولكن ، أن تجد نفسك فجأة ودون انتظار تنحدر من صلب واحد من هؤلاء الرجال الذين امتدت أعمالهم

وشهرتهم لمئات السنين، فهو أمر يستحق الانتباه والوقوف على الحقائق مجردة!...

الآن لم يعد يعنيه أن تكون ميلانى هنا أو فى لندن، لم يعد يعنيه أن تكون تلك الفتاه التى تقف بجواره تكاد تلتصق به، والتى كان جمالها يتحول لحظة بعد أخرى إلى هذا النوع من الجمال المتوحش الصاعق، حقيقة أم خيال... أصبح كل ما يعنيه الآن أن يعرف الحقيقة!، وهكذا انتقلا من غرفة ميلانى إلى غرفة مكتبه. كان يريد أن يقرأ شجرة العائلة فى إمعان، أن يهبط مع فروعها وجذعها كى يصل إلى حقيقة جذوره... لم يدهشه أن ميلانى وافقت على الانتقال إلى غرفة مكتبه، لكن الذى أدهشه أنها ،قبل أن تغادر الغرفة، فتحت الدولاب وأخرجت منه صندوقاً آخر فى قدم الصندوق الأول، بل وتنبعث منه نفس الرائحة التى أطلق عليها « رائحة الزمان»!

فى غرفة المكتب فرد شجرة العائلة كلها أمامه... مال عليها كما مالت ميلانى فاختلطت أنفاسها بأنفاسه. سرت فى جسده رعدة وخشى أن يلتفت نحوها حتى لا تحتويه عيناها... جرى بأصبعه فوق الفروع والأسماء حتى توقف عند اسمه هاتفاً :

«إن الشجرة تقول إن جدة جدتى، كان اسمها «سارة فيلد» وكانت ابنة رجل فرنسي يدعى رينيه مارسيل !»

«هذا حقيقى!»

«كيف ولقد كان والد جدة جدتى هو القائد العسكرى جون فيلد، إنه الشهيد الوحيد فى عائلتنا!»

«ولكن ...»

قاطعها :

«إنى إنجليزى وأجدادى كلهم إنجليز، ولابد أن رينيه مارسيل فرنسى الأصل كما ينبئ بذلك اسمه!»

اتسعت ابتسامة ميلانى، لم ترد عليه، بل فتحت الصندوق الآخر الذى أخرجته من الدولاب، فإذا رائحة الزمان تلك تفوح منه وتملأ خياشيمه... أخرجت مجموعة من الخطابات والوثائق قدمتها إليه.

«ما هذا ؟!»

«اقرأ بنفسك »!!

وراح يقرأ!!!

***

كان الورق قديما ... وكان الخط قديماً يرجع إلى خطوط قرون مضت، كذلك كان الأسلوب ... فض الوثيقة الأولى وراح يقرأها فى عناية، يقرأ الأسماء والتواريخ، حتى توقف فى لحظة هاتفاً :

«هل قرأت هذه الوثيقة؟!»

«وتيقنت من صدقها!»

فى سخرية أشار إلى تاريخ بعيد وهو يقول :

«ألا ترين خطأ فى هذا التاريخ؟!»

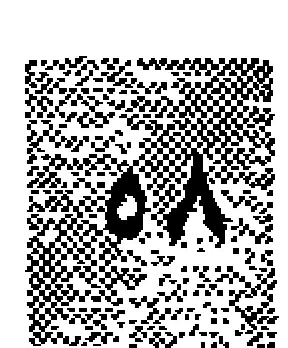
«أى تاريخ هذا ؟!»

«إن ولادة جدة جدتى جاءت بعد زواج والديها بشهرين فقط !»

قدمت له وثيقة أخرى:

«هل لك أن تقرأ هذا الخطاب!»

كان الخطاب من أم جدة جدته إلى إحدى صديقاتها، وكانت تعترف فيه بأنها حملت قبل زواجها بسبعة أشهر كاملة وأن والد جنينها الذى لا تعرف إن كان



بنتاً أم ولداً، جندى فرنسى اسمه « رينيه مارسيل»!

رفع عينيه إلى ميلانى، راح ينظر إلى ملامحها التى كانت تبدو وكأنها تشع ضياء خفياً، احتوته نظراتها فكاد يستسلم، لكنه قاوم قائلاً:

«ومايدريك أن هذا الخطاب حقيقى؟!»

فى ثقة وثبات قالت :

«وما الذى يدفعنى إلى الإيمان بشئ مزيف؟!»

صمت لثوان ثم قال :

«لابد أن هذا كله أخذ منك سنوات!»

«ومازالت هناك مناطق غامضة سوف نكتشفها معاً؟!»

«من أين أتيت بهذه الثقه فى أنى سوف أشترك معك فى مثل هذا السخف!»

«لأنك سوف تشترك معى !»

نهض مكابراً :

«وحتى لو كنت أنحدر من صلب نوستراداموس العظيم، هذا لا يدفعنى إلى البحث فى أمور غامضة!»

«إنها ليست غامضة بهذا القدر الذى نتصوره... ولعلك تذكر صفقاتك المذهلة!»

«ماذا تريدين منى بالضبط!»

«أن تضع يدك على مكمن القوة الخفية فيك!»

« ولكنى لم أشعر قط بهذه القوة!»

« لكنك استعملتها كثيراً وحققت لك نجاحاً مذهلاً!»

شد قامته، واجهها، قال لنفسه إن اللحظة قد حانت، ولابد له أن يطلب

منها، فى أدب شديد، أن ترحل، وأن تحيا حياتها بعيداً عنه.

« ميلانى... هناك ما أريد أن أتحدث إليك فيه ! »

« أنا أعرفه! »

صرخ :

« إذن فعليك تنفيذه! »

« ليس قبل أن تقتنع! »

« ميلانى؟! »

« هل تذكر عمليه البنك الأهلى؟! »

« إنها... ... »

قاطعته :

« وهل تذكر صفقة المليونير العربى؟! »

هم بالصياح فأردفت :

« لا تكابر... أرجوك يا مايكل، لا تكابر!! »

***

وانهارت مقاومته، تبددت قواه فى ثوان، تداعت الأفكار إلى ذهنه بالرغم منه كطوفان كاسح راحت تجتاح كل تفكيره... فعندما استشاره مدير البنك الأهلى فى شراء سندات معينة، كانت قيمة السندات قد وصلت إلى أدنى حد... كانت، بالنسبة للبنك، بلا قيمة حقيقية... لكنه أشار على البنك بأن يشتريها. وضع المدير تحت يده تقارير الخبراء وحسابات السنوات وآراء المتخصصين، وكانت كلها، بلا استثناء، تنصح بعدم الشراء، إن شراء مثل هذه السندات هو الجنون بعينه. لكنه صمم على موقفه... ووقع المدير فى مأزق... كان الرجل يثق فيه، وكان أيضاً صديقه... ولقد طال بينهما الحوار، وأصر

مايكل على موقفه، كان مقتنعاً بكل كلمة جاءت في التقارير ... وكان، كخبير، يرى أن الشراء سوف يجعل من البنك أضحوكة في سوق المال ... لكنه ذلك الهاتف الداخلي الذي راح يلح عليه بأن ينصح بالشراء، فلم يستطع مخالفته!... وكانت النتيجة مذهلة... فبعد أن تم الشراء بأسابيع قليلة، ارتفع السعر في السوق إلى حد در على البنك عدداً لا بأس به من ملايين الدولارات!...

غادر غرفة مكتبه فسارت ميلاني إلى جواره، جلس في البهو المزين بلوحات لكبار الفنانين فكأنه يراها لأول مرة ... نهضت ميلاني، وكانت صامتة، كي تعد له كأساً قبل العشاء ... تذكر صديقه الفنان الذى نصحه بشراء تلك اللوحات التى ارتفع ثمنها هى الأخرى وتضاعف مرات... وتذكر ذلك المليونير العربى الذى استشاره في إحدى الصفقات، كانت هناك أسهم كان مؤكداً في السوق المالية كلها أنها بلا قيمة... قال لعميله العربى إنه يجب أن يشترى تلك الأسهم. دهش الرجل لطلبه هذا فقال مايكل :

«لا تنس أنى أتناول أجراً باهظاً ثمناً لاستشارتى !»

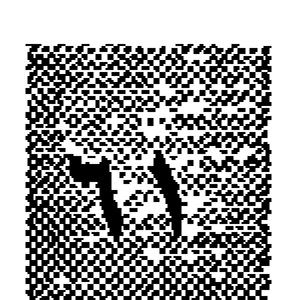
« وهذا ما يدهشنى فى واقع الأمر مستر دار تسون ... إن هذه الأسهم بلا قيمة! »

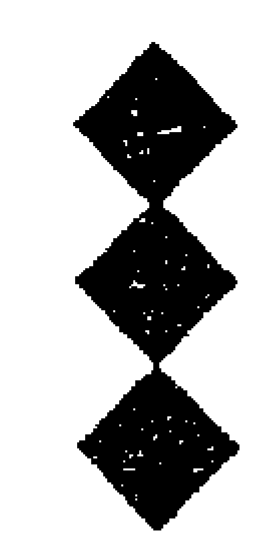
« أعرف هذا، وأعرف الأرقام، ولقد تابعت الأسعار وأنا موقن من أن الصفقة تبدو خاسرة، لكن ثمة شيئاً فى داخلى يدفعنى لأن أطلب منك، وبإلحاح، أن تشترى هذه الأسهم! »

واشتراها الرجل، وتضاعفت ثروته مرتين!!!

هذا ما حدث، وهذا ما تشير إليه ميلانى، وهو إن أراد أن يكذبها، فهل يستطيع أن يكذب التجربة...

وعلى كل، فلقد كان عليه أن يحسم الأمر، والى الأبد!!





لكن ولدك سيكون أقوى

وقفت ميلانى أمامه وفى يدها كأس كانت قد أعدته له... رفع إليها عينيه فإذا عيناها تحتوياته احتواء... أحس برغبه هائلة فى الاستسلام، أحس أنه يريد أن يطيع نصيحة ابنته، وأن يسلم نفسه لميلانى، مرة وإلى الأبد!... فهل يفعل؟!!

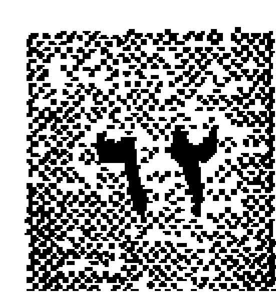
« ميلانى... لم لا ترحلين ؟! »

هكذا قال لها فى توسل، كان يشعر شعوراً داهماً بأنه مقبل على نوع مثير من الحياة، نوع آخر غير هذه الحياة التى عاشها وتعود عليها... لم يكن من السهل ـ هكذا كان يفكر ـ أن يغير رجل فى مثل عمره من نمط حياته، لقد بنى هذا القصر فى الريفييرا، ولكن لأنه يطل على البحر المتوسط، توقف ذهنه عن الدوران فى لحظة... لماذا البحر المتوسط بالذات؟!

« لأنك تنتمى إليه! »

هكذا قالت ميلانى فالتفت نحوها فى عنف، ها هى تلاحقه وتقرأ أفكاره وترد عليها دون أن ينبس ببنت شفة... ألقى بقية الكأس فى جوفه وأعد لنفسه كأساً أخرى ثم خطا نحو الشرفة... كان فى شوق إلى رؤية البحر... البحر المتوسط بالذات !.

كانت الشمس تميل نحو المغرب وقد اصطبغت المياه بلونها الأرجوانى



الدافىء... هبت نسمة رقيقة من الهواء أنعشته فملأ صدره بالهواء... أحس بها تقف خلفه فالتفت نحوها، لم تكن ميلانى فى تلك اللحظة جميلة فقط، بل كان جمالها من ذلك النوع الذى يتخيله البشر ولا يتحقق إلا فى الأساطير... كان شعرها يتطاير كالوهج حول وجهها، وكان رداؤها يتمايل مع نسمات الهواء فكأن جسدها قد تحول إلى أثير... مرة أخرى ينتابه هذا الإحساس الغامض بالانتماء إليها، كان ـ الآن ـ يدرك بوضوح ما الذى تريده ميلانى.. فكيف؟!... عندما التقت عيناه بعينيها ازداد وجيب قلبه فلقد أدرك بما لا يقبل الشك أنها تعرف بالضبط ما الذى كان يفكر فيه، أشاح عنها رامياً بصره نحو المياه متمتما:

« إن فارق السن بيننا كبير! »

« هل نسيت أن الزمن محكوم بدوران الأرض حول الشمس؟! »

« إنك أصغر من ابنتى ... أصغر من سارة ! »

« ربما كنت أكبر منك سناً دون أن تدرى! »

« ميلانى ... من فضلك! »

كان يتوسل حقاً فقالت:

«لقد طلبت منى أن أرحل... فهل تريد منى الرحيل حقاً؟! »

ولم يجرؤ على الرد، لم يرد الرد... كان يخشى أن تكتشف كذبه... لا، لم يكن يريد منها أن ترحل، بل كان يريد بقاءها، بل كان موقنا من أنها سوف تبقى سواء أراد أو لم يرد... عاد يلتفت نحوها، ألقى بنفسه فى عمق نظراتها فاستشعر لذة فاقت قدرته على الاحتمال، جاء صوته مضطربا وهو يسأل :

« ألا تخبرينى بالأمر»؟!

« إذا كنت تريد حقاً! »

« إنى أريد حقاً ياميلانى... لابد لى من التغلب على حيرتى! »

صمتت ميلانى، لاذت بالصمت وراحت تخطو فى الشرفة فكأنها تسبح فى الهواء، حتى إذا ما وصلت إلى السياج واستندت إليه، استدارت نحوه قائلة:

«إنى مؤمنة بأن العقول تورث! »

«ماذا ؟! »

« إننا نرث الأمراض والطباع والوجوه من آبائنا! »

«هذا أمر آخر! »

«إن توريث العقول أقرب إلى المنطق! »

«وماذا إذا كان الأمر كذلك ؟! »

«إذا كانت سارة قد ملكت كل تلك القدرات الفذة على التنبؤ، وهو ما لا تستطيع أن تنكره...فإنك وقد ورثْتَ عنك هذا، تملك من القدارت ما يفوق قدراتها، لأنك جيل أقرب ! »

«وماذا فى ذلك أيضاً؟! »

هكذا صاح فيها فاقتربت منه وكانت تبدو متوهجة بالانفعال :

«إنك تملك من القدرات ياديفيد ما لايمكنك تصوره ! »

«ماذا تريدين منى ؟! »

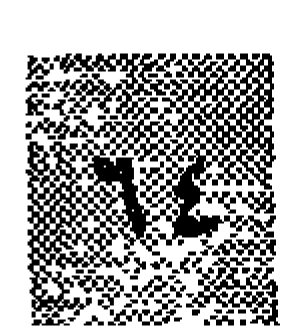
« أن تتخيله! »

«أتخيل ماذا... أنت مجنونة ! »

«صفه لى! »

ألقى بالكأس بكل قواه كى يرتطم بالحائط ويتناثر حطامه مع بقايا الكأس فوق الأرض قائلاً :

«عم تتكلمين؟! »



«أنت تهرب منه، لا تهرب أرجوك، لا تهرب، تمسك به !»

أدرك مايكل دارتسون أنه إنما ألقي بالكأس إلى الحائط لأنها كانت على حق، أدرك أن لا سبيل إلى الهرب فلقد كان في نفس اللحظة التي سألته فيها أن يصفه، يتخيل مكانا ما، مكاناً غامضاً... لماذا وكيف لا يدري...فقط، أحس بهذا المكان فجأة وكأنه انبعث من أعماق الزمن فإذا بها تطلب منه أن يصفه لها... كان يلهث وكانت هي قد اقتربت منه حتى كادت تلتصق به ، لفحت أنفاسها عنقه وكانت تهمس :

«صفه لي ... إني أراه في رأسك وذاكرتك!»

كالمسلوب كالتائه، كالمنوم ، راح يقول :

«إنه بناء كبير ... رمادي اللون... جداره مرتفع ... و ...!»

لاحقته بصوت كان ينفذ مباشرة إلى قلبه :

«لا تتوقف ... استمر ... صف كل ما تراه !»

أحس أنه يعاني ويكابد، أحسن أنه متعب مغلول ... عاد صوتها يشجعه:

«قل كل ما يخطر ببالك، اترك نفسك للصورة، واترك لسانك للكلمات!»

« إنه في فرنسا!»

« نعم ... نعم»...

« الأشجار المحيطة به تقول إنه في فرنسا،،طابعه فرنسي!»

« في أي وقت من السنة نحن الآن؟!»

«في الصيف، إن أوراق الشجر تطبع ظلالها على الجدار الممتد بطول الأرض!»

«كيف تدخل إليه؟!»

« هناك بوابة كبيرة... كبيرة جداً، فيها أبواب صغيرة خضراء اللون، ثم... ثم الفناء الواسع !»

« هل هناك أحد ؟ »

« أناس فى ملابس بيضاء، ممرضة، ممرضات... لابد أننى فى مستشفى! »

همت ميلانى بالحديث، ففتح مايكل عينيه، حدجها بنظرة صارمة، ثم قال :

« هراء ... كل هذا هراء ! »

« أتريدنى أن أعد لك كأساً أخرى ؟! »

لانت نظرته بالرغم منه، قال :

« أرجوك... »

***

ترك نفسه لنسمات الهواء وكانت الشمس قد غابت فأضاء مصباحاً صغيراً وراح ينظر إلى مياه البحر متعجباً... لقد كان ـ بالفعل ـ يعشق البحر الأبيض، يحبه، ويحب المكوث إلى جواره دون سبب واضح ... وهو لهذا بنى هذا القصر كى يقضى فيه بقية عمره فلماذا ... لماذا ؟!

«لقد قلت لك لأنك تنتمى إليه!»

عندما التفت نحوها، كانت إحدى يديها تقدم له الكأس، والثانية تحمل مسجلاً صغيراً وشريطين... تناول الكأس منها، ثم أومأ نحو المسجل متسائلاً:

«ما هذا ؟!»

«إنها بضعة خواطر سجلتها سارة أريدك أن تسمع بعضها!»

وضعت أحد الشريطين فى الجهاز، وضغطت الزر وهى تقول :

«حدث هذا منذ أكثر من عام !»

وانبعث صوت سارة من المسجل :

«إنه حائط رمادى هائل، فيه نوافذ صغيرة... وهناك بوابة كبيرة ... كبيرة جدا ... فيها أبواب صغيرة خضراء اللون ...ثم ...ثم الفناء الواسع!»

توقفت سارة عن الحديث ثم جاءه صوتها وهى تتنهد، لكنه عادكى ينبعث من المسجل هى تصف بدقة بالغة وبنفس الكلمات التى خرجت من شفتيه منذ دقائق، كل ما كان قد رآه وأحسه ووصفه وقاله، كان صوت سارة يردده فى دقة تبعث على الذهول . أوقفت ميلانى المسجل وسألته :

«والآن ، هل تجلس على المقعد وترشف من كأسك رشفة وتسترخى فى جلستك؟! »

كان فى حاجة إلى كل ما قالته فأطاع دون تردد ... فقالت :

«والآن، عد إلى الطريق وصف ما تراه ! »

لم يعد فى حاجة إلى بذل مزيد من الجهد، اكتشف أن كل ما نطق به إنما جاء من إحساسه بذلك المكان، ثم وجد نفسه يقول:

« هناك طريق ملئ بالمارة، والعلم الفرنسى مرفوع فوق بناء متجهم... وهناك أيضاً كنيسه! »

هتفت ميلانى فى انفعال:

«والدكان ... الدكان المواجه للكنيسة، هل تستطيع أن تقرأ اسمه؟! »

«كاربين ... إنه صانع الأسرجة! »

هتفت فى سعادة :

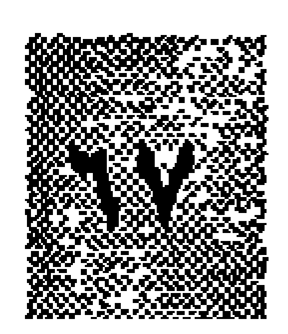
«رائع ... رائع! »

مالت نحوه وكانت مثل طفلة مرحة، طبعت على وجنته قبلة وقد امتلأت عيناها بالسعادة... وعادت إلى مكانها وهى تردد :

«مدهش... مدهش حقا يا ديفيد! »

***

كانت الليلة دافئة، والنسمات تهب عليهما مثل دثار أسطورى يجمعها



معاً، فى ضوء الغروب الشاحب كان يرى وجهها وقد بدت له وكأنها مخلوق من كوكب آخر... ابتسم ـ لأول مرة ـ وهو يسألها :

«ألا تخبرينى عن جلية الأمر؟!»

«لقد كنت تصف مستشفى طولون العسكرى!»

«طولون ... أنا لم أذهب إلى طولون ولا مرة!»

«لقد مات جدك فى هذا المستشفى!»

بدا له الأمر وكأنه نوع من اللهو فهتف بها :

«ميلانى ... إن ما تقولينه ليس أكثر من عبث!»

«هل تعود إلى المكابرة مرة أخرى ؟!»

«لقد مات جدى فى يورك شاير!»

«إن الذى مات فى يورك شاير ليس جدك، ولكنه زوج جدتك!»

«لماذا تريدين أن تقتلعينى من جذورى؟!»

«بل أريد أن أعيدك إليها حتى تنمو ملكاتك ومواهبك بشكل طبيعى!»

«أنا لا أصدق كلمة مما تقولين!».

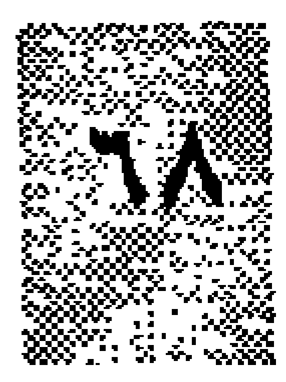
«عد إلى الأوراق والمستندات، اعرضها على من تشاء من الأخصائيين وسوف تعلم أن كلها صحيحة!».

عاد مايكل إلى الابتسام، مال نحوها مدللاً كما كان يفعل مع سارة اذا ما تجادلا أو اختلفا :

«إذا كان ما تقولين صحيحاً، فلِم تزوج جدى الأكبر جدتى وهى حامل فى سبعة أشهر من رجل غيره ؟!»

ضحكت ميلانى وهى تميل نحوه كى يقترب وجهها من وجهه :

«ليس فى الأمر لغز ولو أن فيه سراً لم أكتشفه بعد!»



«إن ما تقولينه يتناقض مع بعضه البعض!»

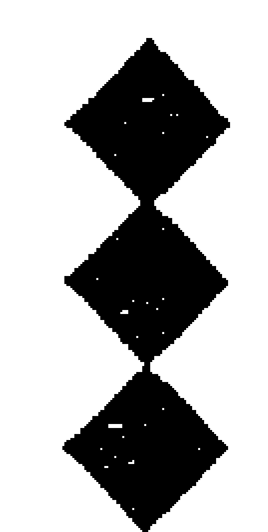
«ليس هذا صحيحاً، فلقد كان من تظن أنه جدك، مخطوبا إلى جدتك قبل أن يذهب إلى الحرب!»

«هذا محتمل لأنه كان رجلاً عسكرياً فذا ... هكذا تقول السجلات !»

«هذا صحيح ... وكانت جدتك أسبانية الأصل! »

صمتت فلاذ هو الآخر بالصمت .

«من هنا لا يصبح الأمر لغزاً فلقد حملت جدتك أثناء وجوده فى الحرب!».



سـر الأحـلام المخيـفـة

أحس مايكل دارستون فى تلك اللحظات، أنه يعيش حلماً من نوع غريب، لم يكن كابوساً، كما أنه لم يكن حلماً عادياً، بل كان شيئاً أقرب الى أفلام الخيال العلمى التى كان يقبل عليها بشغف... هو الآن يشعر ببعض الاستقرار، بل لقد اكتشف أنه يريد أن يعرف المزيد...

قال لنفسه : إننا ننظر الى التاريخ من الزاوية التى تعجبنا، من حيث نبغى ونريد، وليس التاريخ بمثل هذه البساطة، تماماً كالحياة، من الممكن أن نلخصها فى سطور، بينما فى داخلها عشرات التفاصيل التى نهملها، فلم لا تكون ميلانى على حق؟!... التفت نحوها وكانت عيناها فى انتظاره. هتفت وكأنها هناك، فى قلب رأسه:

«ولكنى على حق فعلا!»

ابتسم متسائلا:

«وما هو هذا السر الذى لم تعرفيه؟»

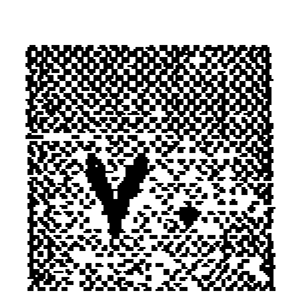
«كيف التقت جدتك بجدك الحقيقى؟!»

هم بالحديث فأردفت :

«إن كل الوثائق تقول إنه كان جندياً فى الجيش الفرنسى!»

«إذن فلقد كان جنديا هو الآخر؟!»

«كان بحاراً فى الأسطول الفرنسى!»



« كيف بحق الجحيم عرفت كل هذا ؟! »

«بالبحث! »

« ولكن ... من يورك شـــاير فى إنجلتـــرا، إلى طولون فى جنوب فرنسا...... »

قاطعته :

« ارجع إلى الخطابات والوثائق! »

« لماذا تريدين معرفة كل هذا ؟! »

« كى أطلق ملكاتك الكامنة! »

***

وضع كأسه جانبا وسار إلى حيث السياج المطل على البحر المتوسط فى الشرفة فاستند إليه، سبحت نظراته مع مياه البحر فى حب وألفة... هل هذا هو السبب حقاً فى حبه للبحر المتوسط؟!... وما الذى أدخل رينيه مارسيل هذا إلى المستشفى، هل كان جريحاً؟!

« لا لم يكن جريحاً... كان مريضا! »

التفت نحوها فإذا هى الآن أقرب إليه منه... سرت فى جسده رعدة حاول التغلب عليها فسألها:

« وكيف مات ؟! »

« بالزهرى! »

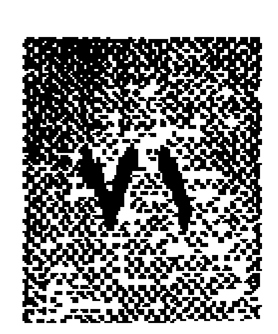
انتفض صائحاً :

« وهل أورثنى مرضه ؟! »

« إن الأمراض تعالج بالأدوية! »

« وما هى حدود التركة التى ورثتها عنه ؟! »

« لست أدرى بالتحديد حتى الآن، ولكنى أعلم شيئاً آخر! »



« ما هو ؟! »

« أن ولدك سوف يرث عنك كل شئ! »

هتفت في دهشة:

« ولدى؟! »

« إنك لا تزال صغيراً! »

كابر فى تحد وقد بدا له الأمر كأنه نوع من الهلوسة :

« عبث ... إن كل هذا عبث ! »

« إنك تكابر! »

« أتظنين أن مثلى من الممكن أن يكون حفيداً لرجل مثل نوستراديموس؟! »

« أنت من صلبه! »

هم بالحديث فأردفت :

« إنه يورثكم ملكاته المخيفة فى التنبؤ! »

« لم يكن والدى ممن يتمتعون بمثل هذه الملكة! »

« ربما لأنه لم ينتبه لذلك! »

هم بالحديث فالتصقت به، وأحس بالدفأ يسرى فى أوصاله :

« ألا تريد أن تفهم؟! »

« أفهم ماذا ؟! »

« أنك شخص خاص جداً! »

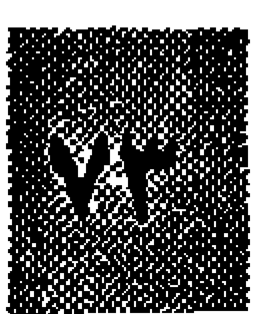
« أنت تبالغين! »

« لقد ورثت عقل واحد من أكثر رجال التاريخ قدرة على التنبؤ بما سوف يحدث فى المستقبل ! »

« حتى لو كان صحيحاً... ... ... »

قاطعته :

« إنه صحيح! »
هم بالحديث فأردفت :
« إن ملكاتك من الممكن أن تجعل منك أقوى رجل فى هذا العالم ! »
***
الآن ... لم يعد مايكل دارتسون يشعر بأنها ملتصقة به ، بل كان يشعر شعوراً حاداً بأنهما تحولا إلى إنسان واحد، إلى جسد واحد ... الليل والنسيم والبحر وذلك الإحساس اللا متناهى بالنشوة، جعلاه يشعر بقوة غير عادية... وقتها، وقت أن شعر بهذا جاءه صوتها كالحلم :
« ولكن ولدك سيصبح أقوى منك! »
حتى تلك اللحظة التى تحدثت فيها ميلانى عن ابنه هذا الذى سوف يصبح أقوى منه، كان مايكل دارتسون يستمع إليها وكأنه يستمع إلى أحاديث فتاة تجتهد فى ناحية من نواحى العلوم الحديثة ربما بكثير من الشطط، وأن عليه أن يستمع إليها أو لا يستمع سيان... ولكن، أن تتحدث عن طفله هذا الذى سيصبح قوه مهولة مؤثرة فى هذه الدنيا ، فإن الأمر قد يختلف فى نفسه كثيراً، لزما الصمت تماماً حتى جلسا إلى مائدة العشاء،كان يعلم أن كل ما يفكر فيه تعرفه ميلانى كأنها تقرأ كتابا مفتوحاً... وبعد كل هذا الذى حدث، لم يعد الأمر يعنيه فى كثير أو قليل، لاك الأمر فى ذهنه بعض الوقت ثم التفت إليها وكانا يتناولان طعام العشاء سألها :
« ما الذى تعنينه بقولك إن طفلى سيكون أقوى منى ؟! »
« أعنى أنك سوف تورثه كل ما فيك من قوى، أنت الآن تدرى ، أو لا تدرى عنها شيئاً! »
هم بالاعتراض لكنها أضافت :
« هذا... فوق تلك القوى التى سوف يرثها عن أمه! »



« أمه ؟! »

هكذا هتف وكأن الأمر في حاجة إلى الدهشه، ضحكت ميلانى قائلة:

« نعم أمه، فلست أظنك سوف تنجب من تلقاء نفسك ؟! »

قال مايكل دارتسون لنفسه، إنه أصبح من الصعب أن يتجاهل الأمر أكثر من هذا، فلم تكن فى حياته امرأة أخرى، بل إن حياته لم يكن فيها من النساء، منذ أن تزوج نورما، سوى زوجته... فوق أنه كرجل، وقد جاوز الخامسة والأربعين ببضعة أشهر ، لا يستطيع أن يتغافل عن تلك الأحاسيس التى تنتابه كلما جاءته ميلانى بالإفطار وهو لا يزال فى فراشه، بل إنه لايستطيع أن يتجاهل تصرفها فى البيت معه أو مع الخدم، والذى يوحى بما لا يدع مجالاً للشك، أنها قد أصبحت بالفعل ربة البيت ... ثم هل يستطيع أن يتجاهل أو يتغافل عن هذا الإحساس المرير بالرغبة فيها ، بل الرغبة فى الارتماء بين ذراعيها ؟!

« إنك تقاوم كثيراً، ومقاومتك هذه تفسد الكثيرمما يجب علينا أن نجنيه! »

لا شك أن ميلانى تريد أن توحى إليه بأنها الأم التى تعنيها ، فلماذا لا تصرح بذلك؟!... عالج السؤال فى ذهنه وانتظر منها أن ترد كما اعتادت لكنها لم تفعل، فقد رمته بتلك النظر ة الآسرة العاتبة وكانت عيناها تفيضان بما لا قبل له به... بعد العشاء عاد إلى الشرفة مرة أخرى فسألها :

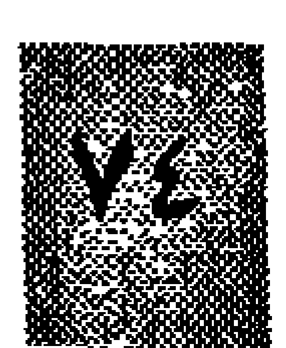
« ما هى الخطوة التالية ؟! »

« لابد لى أن أعرف كل شئ عن رينيه مارسيل! »

« جدى الفرنسى؟ »

« نعم! »

« وكيف نعرف عنه شيئاً؟! »



« بالعودة إلى مسقط رأسه! »

لزم مايكل الصمت ... كان واقعه يقول إنه لا مفر من إطاعة ميلانى... كان الآن مدركاً لوحدته القاتلة أكثر من أى وقت مضى ...

أى قدر هذا الذى حكم عليه بفقدان زوجته وابنته معاً وفى شهور قليلة، انهارت عائلته الصغيرة بل تبددت بعد أن عاش العمر كله يبنى من أجلها مستقبلا تخيله وتمناه...الغريب فى الأمر أن سارة تنبأت بكل هذا وقالته له بوضوح ودون لف أو دوران لكنه لم يتوقف لحظة، كى يمعن النظر فيما كانت تقول، بل إنه لم يضع احتمالا ولو ضئيلا لصدق تنبؤاتها... وها هو الآن بين ذراعى ميلانى، تلك التى أوصته ابنته بأن يسلم نفسه لها وأن يتبعها... فلم يصدق هذه المرة؟!... نعم، لم لا يصدق سارة وقد رحلت عن الدنيا وتركت له وصيه تقوده فيها إلى... إلى ما لا يعلم ؟!

التفت نحو ميلانى فواجهته عيناها بتلك النظرة المغناطيسية... هم بالحديث ولكن الكلمات استعصت عليه، مدت يدها كى تمسك بيده ، همست بصوت حنون.

« إن مقاومتك ترهقك وترهقنى يا مايكل! »

« أين مسقط رأس جدى هذا ؟! »

« إن أبحاثى تقول إنه عاش فى قرية « سانت اوين لابوا » وإن أحفاده لازالوا يعيشون فيها حتى الآن ! »

« ومتى نقوم بهذه الرحلة ؟! »

ارتسمت على شفتى ميلانى ابتسامة بالغة العذوبة، رفعت يده إلى شفتيها وطبعت فوقها قبلة أحس بدفئها يسرى فى أوصاله كالبرق الخاطف بلذة تفوق كل ما تصور، قالت :

« ليس علينا إلا أن نضع أنفسنا في السيارة، ونتجه نحو الشمال! »
ساد بينهما الصمت وخال أنها تسأله إن كان قد اتخذ قراره بأن يتبعها...
قال:
« دعينا أولا نقوم بهذه الرحلة ثم نرى ما الذى يمكن أن نفعله بعد ذلك ! »
اتسعت ابتسامة ميلانى وبرقت عيناها بالفرحة، عادت إلى همسها القاتل :
«ألم أقل لك أنك تستطيع أن تقرأ أفكارى كما أستطيع أن أقرأ أفكارك؟! »
« لن تكون التجربة سهلة يا ميلانى!! »
« ولكنها ممتعة!! »
« ألاتذكر أحلاما معينة كانت تواتيك بشكل منتظم ؟! »
ما الذى جعلها تقفز إلى هذا السؤال بغتته ؟!... لاذ بالصمت فعادت تقول :
« ليس أمامنا كثير من الوقت كى نضيعه فى المقاومة! »
هكذا ردت عليه دون أن يسأل، فسأل بصوت مسموع:
« ما فائدة مثل هذه الأحلام؟! »
«هل تريد أن تعرف؟! »
« نعم يا ميلانى... نعم أريد ! »
***
راحت ميلانى تتحدث إليه فى تدفق من كانت تنتظر تلك اللحظات بالذات... قالت إن الإنسان يملك من القدرات ما لا يخطر له على بال... وإن العلم الحديث قد اكتشف بعض هذه القدرات دون البعض الآخر ... الفرق بين إنسان وآخر، أن هذا قد يكتشف ما حباه الله به من قدرة، وذاك تشغله أمور الدنيا عن النظر إلى ذاته...



« لعلك سمعت عن نظرية العودة إلى الحياة؟! »

هكذا سألته فأجابها بأنه قرأ شيئاً هنا أو شيئاً هناك لكن لم يعط الأمر أهمية... قالت:

«إن الإنسان يعود إلى الحياة مرة ومرة وقد يعود مرات، ليس فى صورة ذلك التناسخ الذى تقول به بعض الديانات الآسيوية، وإنما فى صورة إنسان آخر ... يعود المرء إلى الحياة كى يكفر عما ارتكبه فى حيوات سابقة! »

ثم صمتت لثوان أردفت بعدها:

«أو لكى يكمل مهمة لم يسعفه الزمن كى يكملها فى حياة سابقة! »

ابتسم مايكل ابتسامة فهمت ميلانى معناها فقالت :

«لهذا سألتك عن تلك الأحلام التى تتردد عليك بين الحين والحين! »

اعتدل مايكل فى جلسته وقد اجتذبته الفكرة حقاً :

« ما الذى تقصدينه بالله عليك ؟! »

« إن للأحلام نظريات عديدة... وقد تكون بعض هذه النظريات صحيحة... وقد تكون كلها صحيحة لكن الذى لم يفكر فيه الآخرون أن بعض تلك الأحلام، ليست سوى مخزون يبقى فى الذاكرة من حيوات سابقة! »

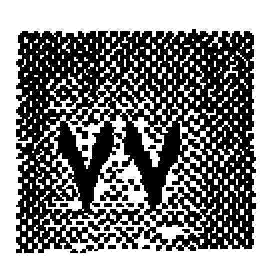
« إن هذه النظرية تفسر غرابة بعض الأحلام لدى بعض الناس! »

« إنك لا تحلم بشىء لم تعرفه ولم تره أو تمارسه ... فمن أين تستجلب الذاكرة أو العقل الباطن هذه الصور إن لم يكن لها أصل من الحقيقة؟! »

كان حديثها منطقيا إلى أقصى حد... سألها :

« هل لك أن توضحى أكثر ؟!

« لقد طلبت منك أن تتذكر أحلامك التى تتردد عليك لأن لكل منا مثل هذه الأحلام ! »



فى دهشة راح مايكل يستمع إليها وهى تقول: إن الإنسان، خاصة وهو طفل صغير، تزوره أحلام تبدو مخيفة وغريبة تماماً، فيها أشكال وأحداث تبدو خرافية وغير منطقية فى حين أن هذه الأحلام ليست سوى وقائع حدثت بالفعل فى الماضى السحيق أو القريب... فلا أحد حتى الآن يعرف متى أو كيف أو كم مرة تتكرر العودة إلى الحياة... هم مايكل بالحديث فأردفت :

«كم حلما كان يراودك ويتردد عليك على مدار عمرك كله ؟!»

« اثنين او ثلاثة !»

« حدد بالضبط !»

« ثلاثة أحلام!»

قال مايكل هذا وهو يشعر أنه ـ لأول مره ـ أصبح يسير مع ميلانى فى طريق واحد، طريق يبدو له معبداً بالرغم مما فيه من معاناة وآلام وأخطار أيضا. جاءه صوتها مثل ترانيم ملاك :

« هل تستطيع أن تتذكر حول أية موضوعات كانت تدور هذه الأحلام؟!»

أغمض مايكل عينيه فواتاه على الفور ذلك الحلم الذى لازمه منذ صباه المبكر، والذى كان يصيبه بالرعب كلما زاره حتى وهو رجل كبير ناضج ... أرتجف فجاءه صوتها :

«قل، لاتتردد... قل كل ماتراه !»

لكنه تردد... فتح عينيه، بالرغم من الخوف الرهيب الذى انتابه، إلا أنه قال مبتسما وكأنه شاهد لتوه فيلما سينمائيا يدور فى أحراش أفريقيا أو أمريكا الجنوبية:

« ميلانى إنه نوع من التخاريف ... وربما كان بقايا فيلم سينمائى شاهدته

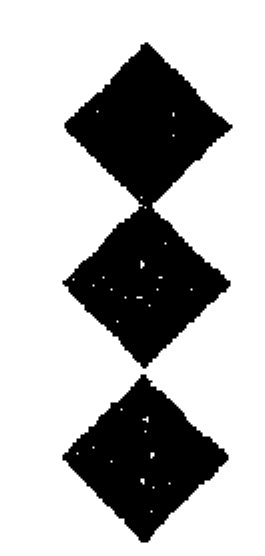
أو رواية خيالية قرأتها ذات يوم لا أذكره !»

« قل مايكل... قل ياحبيبى»

أرتجف لدى سماعه كلمة حبيبى... ارتجف حقا فابتسمت وقد أدركت ما اعتراه وهى تضيف:

« قل ... فلسوف تعرف ذات يوم أنى لست غريبة عنك، فلقد أكون أصغر منك بحساب السنين لكننا فى حساب الزمن لا تقاس أعمارنا بدوران الأرض حول الشمس!!»

وكان لابد له أن يقول؟!!



الطفل المطبوخ

الآن ... لم يعد مايكل دارتسون فى حاجة لأن يغلق عينيه كى يتذكر ، كان كل شئ أمامه واضحاً وضوحاً كافياً... واتاه هذا الحلم مرات ومرات وكم تعجب منه وكم أدهشه ذلك الخوف العربيد الذى كان يجتاحه اجتياحاً كلما استيقظ من نومه وقلبه يخفق فى عنف بالغ . .

« تحدث يا مايكل... لا تخجل... لا تتردد! »

« ميلانى... إنه عن آكلى لحوم البشر! »

« وما الغريب فى هذا... إنهم موجودون فى أفريقيا حتى الآن! »

« إن ... إن المكان فسيح ... إنه يبدو فسيحا للغاية... وهناك أناس كثيرون فى أسمال بالية وربما عرايا ، لست متأكدا من ذلك ، غير أنى متأكد أنهم ليسوا جميعاً من السود! »

« لا تحاول التفسير الآن... استمر ... قل ماتراه ! »

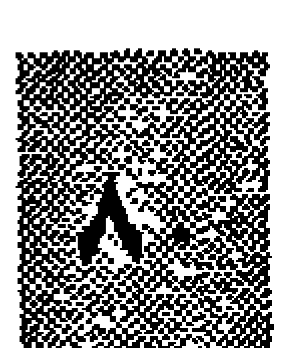
« هناك طفل ... هناك طفل...طفل! »

بدأ مايكل يرتعد،كان مفتوح العينين صاحى الإدراك لكنه كان يرتعد...

« أكمل ! »

« وإناء به ماء يغلى! »

« ثم ؟! »



«إنهم يطبخون الطفل!!!»

قفز مايكل واقفاً وكان يبحث الآن عن كأسه.

«إن كأسك في يدك!»

التفت نحوها وكانت تجلس فى مقعدها وفى يدها كأس من المياه المعدنية... هتف:

« إن هذا مرعب... هذا فظيع... كيف يأتينى هذا الحلم... ولماذا ؟!»

« إنه ليس حلما يا مايكل!»

« ماذا يكون إذن!»

« إنك تصف ما شاهدته ذات حياة أخرى !»

« هل هذا ممكن ؟!»

« إنه التفسير الوحيد... وإلا فكيف واتاك هذا الحلم إذن ؟! »

رشف مايكل من كأسه رشفة وأشعل سيجارة... كان يريد لأعصابه أن تهدأ قليلا... وكان ـ بينه وبين نفسه ـ يتساءل : لو أن الأمر كان مجرد حلم، فلم هذا الخوف الفظيع الذى ينتابه الآن؟!... كانت ميلانى هادئة، وكانت عيناها ترسلان فى ضوء النجوم بريقاً يخطف البصر ويخلب الألباب... كانت جميلة ذلك الجمال الذى يواتى الإنسان فى حالة الرضا عن نفسه ... سألته:

« وماذا عن الحلم الثانى!»

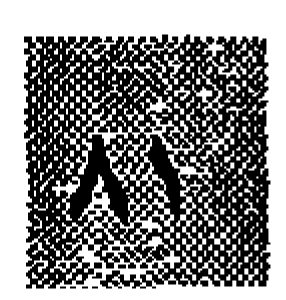
«إنه عن رجل خصى !»

«آه......»

هكذا قالت فرفع حاجبيه دهشة فابتسمت.

« هل تعرفين ذلك الحلم؟!»

أطلقت ضحكة مرحة فلقد بدا لها مايكل مثل طفل يواجه الأعاجيب...أجابته قائلة :



« لو أنك عدت إلى التاريخ، وهو ليس بعيدا على كل الأحوال، فلسوف تكتشف أن القصة حقيقية! »

هم بالحديث لكنها مالت نحوه الآن وهى تقول :

«دعنا من هذا الحلم، وانتقل إلى الحلم الثالث! »

« ميلانى!! »

هكذا هتف محتجاً فقالت:

« لا تدع الصورة تهرب من مخيلتك وأعدك أنك ستسمع كل شئ منى عن الحقيقة! »

« إنه أقرب الأحلام وضوحاً! »

« ماذا ترى ! »

« الحرب ... الحرب العالمية الأولى! »

« أكمل ... أكمل !»

« إنى راقد فى حفرة ... إنهم يهيلون علىّ التراب! »

قالت ميلانى :

« هذا هو بيت القصيد... وهذا هو الحلم الذى أسعى إلى معرفة تفاصيله أكثر من غيره! »

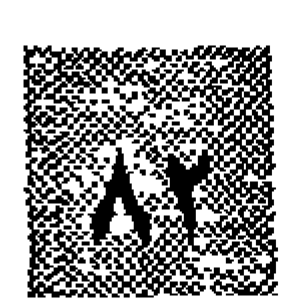
نظر إليها دهشاً، لكنها أردفت :

« أعلم أنك لن تصدقنى لأول وهلة، كما أعلم أن مقاومتك العنيدة سوف تعود إليك مرة أخرى! »

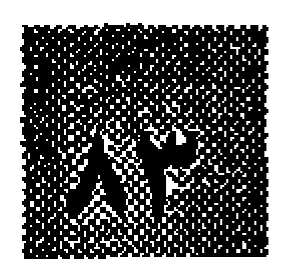
« ماذا تعنين بالله عليك! »

« لقد كانت هذه الأحلام الثلاثة بالذات تراود سارة! »

صرخ غير مصدق :



« ماذا ؟! »
أومأت نحو جهاز التسجيل قائلة :
« لو أنك وضعت الشريط الثانى فلسوف تسمع صوت ابنتك وهى تحكى هذه الأحلام بالذات! »
« إذن فلقد كنت تعرفينها! »
« لولا أن سارة لم تستطع أن تتذكر التفاصيل المطلوبة. لما احتجت إليك لتحكى! »
متوسلا هتف :
« ميلانى !! »
قالت :
«إنها ليست أحلاما يا حبيبى... إنها ذكريات حيوات سابقة ! »
« وماذا بعد؟! »
« هذا ما يجب عليك الآن أن تتذكره بوضوح... إن هذا الحلم بالذات، هو أملنا المنشود! »
وبدأ مايكل دارتسون، دون أن يدرى كيف، يتذكر.
أحس أنه ينزلق فى طريق لا سبيل إلى التوقف فيه، دون إرادة نعم!، وبإرادة نعم أيضا... هكذا كان يشعر، كان ينزلق رغما عنه وكان يريد، وفى نفس الوقت وبنفس القوة، أن يتذكر ...
مدد ساقيه أمامه، ترك كأسه لميلانى، أغمض عينيه ... ليست هناك غيبوبة. إنه يرى الآن صوراً متداخلة لميدان قتال... جنود، مدافع، انفجارات رصاص... كانوا يرتدون ملابس كاكيه ... لا... ليست كاكية، إنها خضراء اللون أحالها الطين والأوساخ والأتربة والأمطار إلى ذلك اللون الكاكى



المقبض... ولكن ... ماهذا؟!... ما هذا؟!.

فتح عينيه واعتدل في جلسته وكانت نظراته تنطق بالآلام بلا حدود ... نعم، كان يتألم. وكان الألم رهيباً، ورغم هذا، اجتذبته نظرات ميلاني فراح يتحدث :

« إن الألم فظيع يا ميلاني! »

« أعرف هذا! »

« لقد كنت جندياً في جيش نابليون... لا ... لم أكن جنديا، كنت عريفا! »

هتفت ميلاني بسعادة:

« مايكل ... إنك تقودنا إلى الطريق الصحيح! »

« نحن في طريقنا إلى الدانوب لمحاربة النمساويين... نحن سعداء، نغني، نعم نغني، فلقد كان النصر يسير في ركابنا من ساحة إلى ساحة ومن دولة إلى دولة... يقودنا ذلك القائد الباهر نابليون، يالها من سعادة... ولكن انتظري... إن إحدى العربات تتوقف، أرجل الخيل تنزلق في الوحل، إنها تعوق الطابور عن التقدم... لا بد لنا أن نحركها وأن نخرجها من تلك الحفرة... نعم هناك حفرة انزلقت إليها إحدى العجلات! »

جحظت عيناه ،ازداد وجيب قلبه، أردف:

« إننا ندفعها، إنها تتحرك ولكن ... حذار ... حذار... حذاااار! »

سقط مايكل فوق مقعده جاحظ العينين، هبت إليه ميلاني :

« مايكل... ماذا يحدث ... خبرني ... ماذا ترى ! »

« سقطت العربة فوقي، فوق ساقي، بترت ساقي... بترت ساااقي! »

مع الألم الطاغي كان الدمع يسيل من عينيه... جاء صوته واهناً :



«بيبروت ... بيبروت ... أنقذنى يا صديقى ... أنقذ ... ... »

«ثم لم يعد يشعر بشئ!»

عندما فتح مايكل عينيه بعد ذلك، وجد نفسه راقداً فى فراشه ... وكانت ميلانى هناك إلى جواره تنظر إليه فى حنان طالما اشتاق إليه... عندما تحدث، أدهشه أن صوته كان بالغ الضعف، سألها :

« ما الذى حدث؟!»

ربتت على وجنته قائلة:

« لقد أغمى عليك!!»

امتلأت عيناه بالدهشة ... كان يشعر بضعف ووهن بالغين. دون سؤال أجابت ميلانى عما كان يدور فى رأسه من أسئلة حائرة :

« كان استرجاعك للأحداث رائعاً!»

« أية أحداث ؟!»

« حادث العربة فى جيش نابيلون !»

« ميلانى... هل تصدقين!»

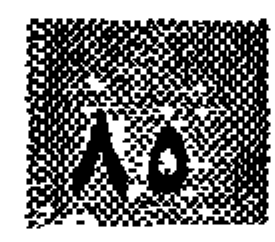
« لا تكابر يا مايكل... إن الأشرطة موجودة، ولقد استرجعت سارة نفس الحادث لكنها أبداً لم تستطع أن تتعدى حادث سقوط العربة الحفرة، لم يكن لسارة مقدرتك البللورية على التذكر!»

« إن الأمر يبدو لى وكأنه ضرب من الجنون!»

« هل تذكر اسمك فى حرب نابليون؟!»

«لانوت !»

هكذا قال ونطق وفاه دون أن يدرى أو يتذكر أو يجول الاسم فى خاطره ولا لثانية. ابتسمت ميلانى وتركته مهرولة كى تغادر الغرفة ... نهض من الفراش



ذاهلا، راح يردد الاسم دون أن يدرى لماذا ؟!... لانوت... لانوت... لانوت...
هب من الفراش، غادره وراح يسير فى الغرفة وهو يقدح ذهنه ، بدا له الأمر باعثا على الجنون... توقف فى منتصف الغرفة، بحث عن صندوق السجائر وأشعل سيجارة رغم أنه لا يدخن أبداً فى غرفة نومه... كان ثمة شئ جديد يدخل حياته، يقتحمها رغما عنه... شئ من داخله إلى داخله، ليس شيئاً وافاداً بل هو شئ منه وإليه... فلماذا لانوت بالذات ... وماذا...

عادت ميلانى فى تلك اللحظة فهتف بها وقد استغرقه الأمر :

« ماهى علاقة لانوت برينيه مارسيل؟! »

كانت ميلانى تحمل فى يدها شجرة عائلة «نوستردام» وعلى شفتيها ابتسامة...

« إن لم تتضح لنا الحقيقة فى هذه الشجرة، فلسوف نعرفها فى الغد؟! »

فردت الخريطة أمامها... وضعت إصبعها عند اسم «رينيه مارسيل» الذى كان ينحدر من صلبه... إلى جواره، وفى فرع آخر، كان هناك اسم لانوت يبدو باهتا... . التفت نحوها فى تساؤل ... قالت :

«ربما كان الاسم لأخوين من ام واحدة وأبوين مختلفين! »

« لكن الشجرة لا تبين أية علاقة بين الاسمين! »

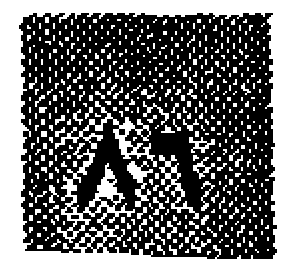
« سوف نكتشف تلك العلاقة عندما نزور سانت أوبن ! »

« كيف يكون اسمى لانوت وكيف يكون جدى فى نفس الوقت هو رينيه مارسيل؟! »

نظرت إليه نظرة ثابتة واثقة وهى تقول :

« إن عقولنا لم تصقل بقدر يكفى لأن نحل كل الألغاز... دعنا نسعى وراء الحقيقة. ولسوف نكتشفها!! »

***



فى صباح اليوم التالى كانا يرتديان ملابس الرحلات، كان أمامهما بضعة مئات من الأميال كى يصلا إلى القرية... اتجهت ميلانى إلى سيارة لاند روفر كان قد اشتراها منذ عامين كى يقوم فيها برحلات إلى الخلاء مع نورما... لكنه لم يستعملها ولا مرة ... كانت السيارة مجهزة بكل شئ يحتاجه الإنسان فى رحلة إلى الخلاء... وهو ، عندما كان يتحدث معها وهما على مائدة الإفطار عن رحلتهما إلى قرية «سانت أوبن»، لم يتخيل ولم يفكر فى تلك السيارة المهملة منذ عامين. خاصة وأن سيارته الاستروين كانت جاهزة، كما كانت قوية تصلح لرحلة مثل هذه.

«إن اللاندروفر لا تحتاج إلا لتغيير البطارية!»

لم يدهشه أن ميلانى قامت باستبدال البطارية فى بساطة... ورغم أنه ساعدها، إلا أن حركه يديها كانت تنبئ عن معرفة سابقة بمثل هذه الأمور حتى ولو كانت فى بساطة استبدال بطارية سيارة.

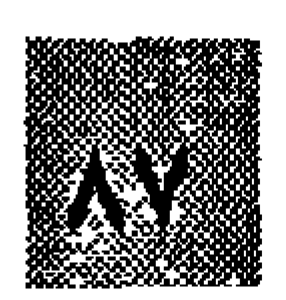
سمعها تتمتم وهى تنتهى من الأمر وكأنها ترد على ما كان يجول فى خاطره:

«ربما كان أبى ميكانيكيا!»

انتبه الآن فقط إلى حقيقة غابت عنه وسط هذا الطوفان الذى جرفه معها... انتبه إلى أنه لا يزال جاهلا بكل شئ عنها، أنه لا يعرف من هى ومن أبوها ومن جدها ومن تكون ومن أين أتت وظهرت فى حياة ابنته ثم ها هى تحتل حياته هو شخصياً؟!

« لا تشغل بالك بهذا الأمر، فلسوف تعرف كل ما يجب أن تعرفه فى الوقت المناسب!»

ذكرته هذه الجملة بجملة قالها عميل للمخابرات الإنجليزية لواحد من



معاونيه. فتساءل : هل تكون ميلانى عميلة لأحد أجهزة المخابرات؟... وهل كل ما تفعله هذا ليس سوى حيل كى تستدرجه إلى مهمتها الرئيسية؟!... جلجلت ضحكاتها فى فضاء الجراج وهى تصعد إلى السيارة صائحة:

« ليتك تترك لذاكرتك العنان كما تترك لخيالك العنان يا مايكل!! »

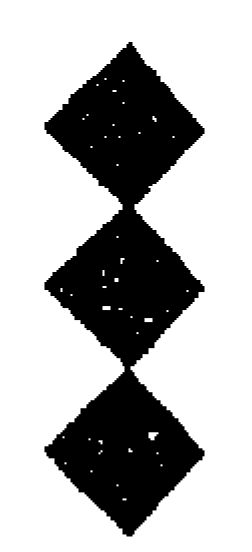
أدرك أنها قرأت أفكاره فابتسم، وصعد إلى السيارة خلف عجلة القيادة، كانت الرحلة عبر الريف الفرنسى ممتعة دون شك ... كان الجو صحواً والشمس مشرقة ومشهد الفلاحين والأبقار والعربات ومجمعات اللبن والجبن تتناثر بطول الطريق، كما كانت السيارة فى حالة جيدة جداً. عندما وصلا إلى القرية، كان النهار قد انتصف منذ ساعة أو يزيد، راح مايكل يفكر وهما يدخلان إلى القرية الهادئة فيما هو فاعل... إنهما لا يعرفان شيئاً عما كانا قادمين إليه... إن كل ما يملكانه هو حلم كان يواتيه بين الحين والحين حتى اتضحت صورته بالأمس كاملة... واسم غريب فاه به دون أن يدرى السبب، اسم لم يسمعه ولم يخطر بباله طوال حياته... عندما دلفت السيارة إلى الساحة الرئيسية للقرية، صاحت ميلانى:

« انظر! »

التفت حيث أشارت فدق قلبه بعنف...

لقد كان ما يراه الآن أمامه، شيئاً يفوق الخيال!!





العكاز

كانت هناك لافتة فوق دكان جزار، وكان الاسم المكتوب عليها بوضوح هو «لانوت»! ... هبطا من السيارة إلى الساحة الخالية إلا من رجل هنا وامرأة هناك... كان المكان يسوده ذلك الهدوء الذى يسود ساحات القرى وقت الظهيرة عندما يكون كل السكان فى الحقول أو مصانع الألبان... سارا إلى دكان الجزار، ما إن اقتربا منه حتى برزت لهما سيدة بدينة قوية البنية، سدت عليهما الطريق قائلة:

« لن نفتح قبل الساعة الرابعة! »

نظرا إليها فى دهشة فأردفت :

« نحن لا نعمل إلا بعد أن يعود الناس من أعمالهم! »

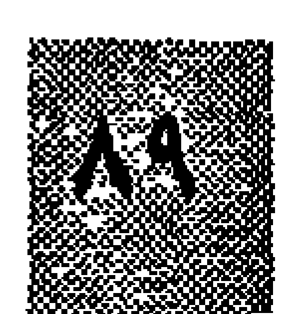
واجهتها ميلانى قائلة:

« سيدتى... نحن لا نريد أن نشترى لحما! »

« ماذا تريدان إذن؟! »

« إننا ندرس فى إحدى الجامعات، ونحن نقوم ببحث فى فترة من فترات التاريخ حيث ذكرت فيها عائلة لانوت ! »

قالت ميلانى هذا وهى ترفع رأسها نحو اللافتة. بدا الاهتمام فى عين المرأة وهى تسأل:



« ماذا تريدان أن تعرفا ؟! »

« كل شئ... زوجك... أولادك... أقاربك... كل ما يمت إلى اسم لانوت بصلة! »

أحست صاحبة دكان الجزارة بأهميتها الفائقة فدعتهما إلى الجلوس وراحت تحكى دون أن يطلبا منها أو يسألاها سؤالا واحداً... ظلت تتحدث وتتحدث لكنهما لم يجدا لديها شيئا يجدى... بدأت ميلانى توجه إليها السؤال تلو الآخر دون أن تجد لديها ما يفيد ... بدت عليهما خيبة الأمل فهتفت المرأة فى رغبة مخلصة للمساعدة :

« هذا كل ما نعرفه، وإذا كنتما تريدان المزيد فاذهبا إلى ابنة عمى! »

نظرا إليها فى دهشة فقالت :

« إنها متعلمة، تفهم فى مثل هذا الأشياء أكثر منى، ثم إنها تملك مزرعة فى الطريق إلى الغرب! »

« من هى ابنة عمك ؟! »

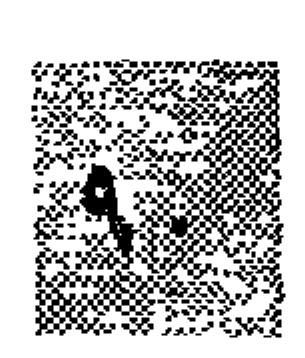
« ان اسمها جولى لانوت، اسألا عن مزرعتها فى الطريق ولن تضلا!! »

***

بدا لهما المشهد غريبا كل الغرابة... ففى وسط الحقول، وعلى بعد من بيوت الفلاحين، كان ثمة بيت عصرى من تلك القصور الصغيرة التى يملكها البرجوازيون الريفيون فى المدينة...

الحديقة الجميلة، الجراج الأنيق، إيريال التلفزيون، البوابة البيضاء الخشبية التى ما إن توقفت السيارة أمامها، حتى برزت السيدة جولى أمام باب بيتها مرحبة.

كانت مدام لانوت تظن، عندما توقفا بالسيارة أمام بيتها، أنهما فى حاجة



إلى شئ... وعندما عرفت منهما أنهما يريدان معرفة كل شئ عن عائلتها رحبت بالأمر في سعادة بالغة... دعتهما إلى الدخول وقدمت لهما شرابا وجاءت بصندوق قديم ملئ بأوراق ترجع إلى قرنين من الزمان، وراحت تحكى وتثرثر عن عائلتها بكل ما تعرفه عن تاريخها .

كانت مدام لانوت سيدة نحيفة نحاسية الشعر والبشرة ... كما كانت الأوراق التي يحويها الصندوق تؤكد أن السيد لانوت الكبير كان عريفاً في جيش نابليون... أما فيما عدا هذا، فلم يجدا لديها شيئاً جديداً. مالت ميلاني على مايكل هامسة :

« ألا تشعر بشئ؟! »

هز رأسه نفياً فالتفتت نحو السيدة لانوت متسائلة :

« هل نستطيع أن نجد شيئاً من مخلفات السيد لانوت الكبير؟! »

ضحكت جولى قائلة :

«لقد مات منذ مائتى عام ! »

« ألم تكن هذه الأرض ملكاً له؟! »

« نعم... لقد توارثناها عنه! »

« هل تخلصت من كل ما كان في المزرعة؟! »

« إنى لا أحب الفلاحين ولكن ... ... »

توقفت السيدة لانوت عن الحديث وكأنها تذكرت شيئاً.

« هل تذكرت شيئاً؟! »

« لست أدرى إن كان ما تذكرته سوف ينفعكما! »

« ماهو ؟! »

« إنها الحظيرة؟! »



«أية حظيرة؟!»

«إنها حظيرة قديمة فى أطراف المزرعة أعتقد أن فيها بعض الأثاث القديم وعربة مفككة وأشياء من هذا القبيل!»

«هل نستطيع أن ندخلها؟!»

«بالتأكيد... ولكنى لا أستطيع أن أصحبكما إليها!»

***

بعد دقائق كانا يدلفان إلى الحظيرة. كان المكان يبدو مهجوراً منذ سنوات وسنوات. حتى الجدران كانت متهالكة وخيوط العنكبوت منسوجة فى كل مكان... سارا إلى الداخل خطوات وجالا ببصريهما فى المكان فوجدا كل ما يمكن أن يجداه فى حظيرة فى مزرعة... كانت هناك فؤوس وجواريف ومحاريث وبقايا عربة قديمة ودولاب متهالك... خطا مايكل دارتسون خطوة أخرى لكن ميلانى تسمرت فى مكانهاوقد جحظت عيناها... التفت نحوها فأدهشه أمرها:

«ميلانى... هل أنت بخير؟!»

«تقدم يا مايكل... تقدم أنت!»

كانت ميلانى شاحبة شحوباً هائلا فهاله الأمر :

«ميلانى!»

«تقدم أرجوك ... إن فى هذا المكان شئ بالغ الأهمية لك !»

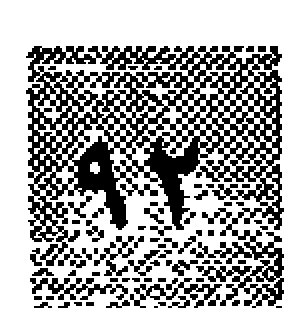
تردد مايكل قليلا فعادت تقول :

«تقدم ولا تتوقف ... ومهما حدث لى تقدم ولا تهتم !»

أحس مايكل أن قدميه لقد التصقتا بالأرض.

«لا تقاوم... افعل ما أطلبه منك!»

وراح مايكل يتقدم وسط عشرات الأشياء القديمة والمستهلكة والتى تبدو بلا



قيمة. كان يتقدم، غير أنه بعد لحظات بدأ يشعر وكأن شيئاً ما يجذبه إليه، شئ مجهول لا يعرفه ولا يدريه ... راح يزيح الأشياء عن طريقه بيديه ويتقدم، لم يعد يعنيه الآن سوى أن يتقدم، أزاح جاروفاً ودفع دلفة دولاب سقطت، اعترضته عصا فأمسك بها كي يلقيها بعيدا وإذا ميلانى تصرخ :

«إنها هى... إنها هى ؟»

التفت نحوها وكان يرتجف :

« ميلانى! »

قبل أن تفتح فمها بكلمة، كان يلقى بالعصا بعيدا وهو يطلق صرخة مدوية!

« ماذا بك ؟! »

هكذا سألته... قال وهو يرتجف:

« يا إلهى، لقد مزق الألم ساقى فجأة! »

« أمسك بها مرة أخرى، أمسك بها أرجوك »

مد يده مرة أخرى إلى العصا فوجدها عكازاً. رفع العكاز فى يده أمامها فإذا بها تصيح والفرحة تجتاحها اجتياحاً :

« رباه... إننا نملك الآن ما يجعلنا أقوياء ! »

كان العكاز ملتصقا بيده لكنه هتف:

« ماذا تقصدين؟! »

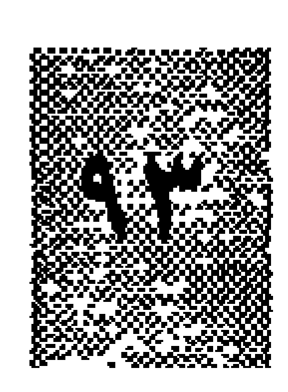
«إننا نستطيع، بهذا العكاز الخشبى أن نهزم العالم! »

ارتجف مايكل دارتسون، واستطردت ميلانى فى فرحة وحشية :

« إنه عكاز لانوت الكبير... ألا تذكر ! »

حملق فيها وهو يلهث وكانت تقول:

« لقد بترت ساقه فى حروب نابليون، وهذا هو عكازه... إنه عكازك!!! »



الآن... فى تلك اللحظات بالذات كان مايكل دارتسون يجتاز ذلك الحاجز الذى ظنه ذات لحظة منيعاً، فيما بين القبول والرفض... كان العكاز ملقى فوق الأرض بينهما، بينه وبين ميلانى... لكن آثار تلك الآلام الرهيبة كانت لا تزال حية فى ذاكرته، بل حية فى ساقه، تلك التى قالت عنها ميلانى إنها بترت ذات مرة فى حياة أخرى قبل قرن ونصف القرن فى حروب نابليون... أراد أن يكابر لكنه أبى، فلا مجال أمام هذا الألم الساحق الذى أحس به، للمكابرة... نعم، لقد أحس بالألم رهيباً فظيعاً يسحق ساقه سحقاً وكأن طوداً قد سقط فوقها ففصلها عن جسده... رفع رأسه نحو ميلانى وكانت لا تزال شاحبة، وكانت لا تزال أيضاً لاهثة... يشع من عينيها ذلك البريق المخيف الأخاذ... وكانت تنظر إليه فى توسل ورجاء.

« ميلانى ! »

لم ينطق سوى اسمها، فقط اسمها الذى جرى به لسانه... لكنه أحس، هذه المرة بوضوح ودون شك، أن طوفانا من الكلمات والمعانى قد تدفق من رأسه إلى رأسها، من صدره إلى صدرها، من كيانه إلى كيانها... كانت الأسئلة تتزاحم فى رأسه بل تتصارع كى يفرض كل سؤال نفسه قبل الآخر ... وجاءته الإجابة، دون دهشة هذه المرة، من ميلانى، بسيطه أخاذة :

«نعم يا مايكل، إنك تمتلك من القوى ما لا يخطر لك ببال، بل ما لم يخطر ببالى أنا شخصيا!»

«ولكن... ...»

الآن جاء صوتها مقاطعا محدداً المعانى وكانت تشير بإصبعها إلى العكاز الملقى فوق الأرض بينهما :

«إن فى هذا العكاز سرك الأعظم ... إن فيه قوى كامنة لا تخطر ببال بشر!»

كان يصدقها وكان يعلم أنها تعرف ذلك، لكنه لوح بذراعه قائلا :

«ولكنى لا أشعر بهذه القوة التى تتحدثين عنها... لا أشعر فى جسدى بقوة غير مألوفة! »

تقدمت خطوة لكنها لم تتخط العكاز وكأنه حائط يقف بينهما، قالت :

«لا تستهن بالقوى الكامنة فى الإنسان عموماً لا فيك أنت فقط... لقد أثبت العلم الحديث كل ما قال به السحرة والعرافون وظنه البعض خرافات وخروجاً عن المألوف فى يوم من الأيام... إن الإنسان يملك فى جسده البسيط هذا من القوى ما يستطيع به أن يسبر الكون وأن يسيطر عليه... وما هذه الاكتشافات التى تترى يوماً بعد يوم، سوى حبو فى طريق المعرفة اللانهائى! »

بدا له حديثها منطقيا، بل بدا له حقيقيا إلى أقصى حد، فلطالما فكر فى هذه الاكتشافات التى تترى على البشرية يوما بعد يوم، ولطالما فكر فى صباه وما كانت عليه الدنيا منذ أقل من ثلاثة عقود فقط ... إن التغيير الذى يطرأ على الحياة الإنسانية لا يكاد عقل يصدقة، والسرعة التى يتم بها التقدم تتزايد بسرعة تجعل العقل يدور.

«مايكل ... انظر إلى المستقبل! »

كان يعرف أنها تقرأ أفكاره!

«ولا تنظر إلى الماضى! »

وكان يعلم أيضا أنها تساير تفكيره... عادت إلى الحديث فى رقة:

« فكر ولو لثوان... ما الذى نستطيعه لو أننا استعملنا قدرتنا على التنبؤ! »

آه... ها هى تدخل الحلبة معه... ها هى تربط مصيرها بمصيره... إنها تقول ما الذى نستطيعه، ولا تقول الذى تستطيعه هى ... إنها تقول قدرتنا ولا

تقول قدرتك ... فالى أين ؟!... دق السؤال كالنذير فى ذهنه فجاءه الرد على الفور :

«إن هذه القوى الكامنة فينا لا بد من استغلالها لصالح البشرية !»

***

وجد نفسه، وكأن أمراً وجّه إليه ولم يكن أمامه إلا أن يطيع... انحنى كى يلتقط العكاز وكأنه ينتمى إليه... لم يكن هناك ألم، ولكن كان هناك ما هو أفظع من الألم.. كان هناك ذلك الإحساس الذى يشعر به الإنسان تجاه شئ تعود عليه واعتاد استعماله.. تماما كما تجلس إلى مقود سيارتك التى تقودها كل يوم، عارفا مكان كل شئ دونما حاجة إلى تفكير... بل إنك تعرف كيف تجلس فى المقعد لكثرة ما جلست عليه.

عندما كانا يغادران الحظيرة كان ممسكاً العكاز في يده، وكانت ميلانى تمسك باليد الأخرى متعلقة به !! ...

هكذا وجد نفسه يفعل، بل هكذا أحس أنه يجب أن يفعل... ما أن التقط العكاز حتى مد لها يده فتعلقت به، تماما كما كانت زوجته نورما تفعل، بل ، ربما أكثر ألفة من نورما نفسها!!...

خارج الحظيرة كانت الدنيا هى الدنيا ، الحقول الترابية، أشباح الجبال البعيدة، نسمات الهواء وعيدان المحصول تتمايل كأنها عرائس، الشمس والسحب والسماء... كل شئ.. كل شئ كان هو هو ... فما الذى حدث ... التفت نحو باب الحظيرة، وكان إحساسه يقينياً بأنه كان هناك ، داخل تلك الحظيرة يحيا فى التاريخ !...

عندما فتحت لهما مدام «لانوت» باب بيتها العصرى، كانت قد أعدت لهما كأسين من الشراب، وكانت تصيح فيهما دون أن تنتبه إلى العكاز فى يده:

« لولا أنى أعلم أنكما فى عجلة من أمركما لأعددت لكما الحمام... فأنا أعلم أن الحظيرة مهجورة منذ أكثر من نصف قرن من الزمان! »

عندما جلسا، وعندما قدمت لهما الشراب، لحظت العكاز فقالت فى لا مبالاة :

«لابد أنك عثرت على هذه العصا فى مكان ما من الحقول ! »

قالت ميلانى:

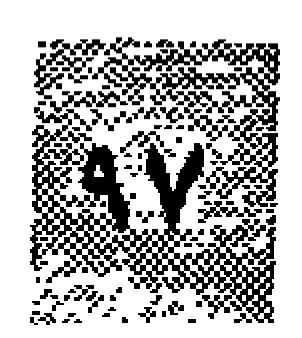
«بل وجدناها فى الحظيرة مدام لانوت، وهى ليست عصا، إنه عكاز! »

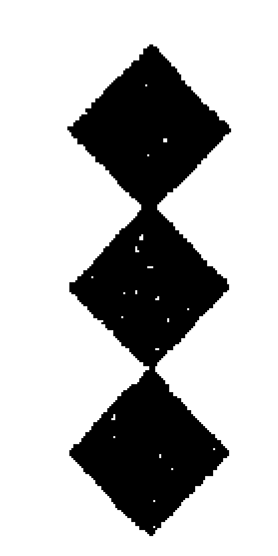
«آه ... »

هكذا قالت السيدة لانوت، وعندما همت بالحديث فى موضوع عائلتها مرة أخرى أردفت ميلانى :

«إننا نستأذنك فى أن نأخذ العكاز معنا ، فلربما أفادنا كثيرا فى بحثنا الذى نقوم به! »

أبدت السيدة لانوت دهشتها البالغة، فكيف يفيد عكاز أو عصا فى بحث علمى... غير أن سيل المصطلحات العلمية الذى تدفق من بين شفتى ميلانى، جعلها تنصت فى انبهار واحترام، بل جعلها ترحب بحماس، أن تشارك فى أبحاث علمية، بقطعة من الخشب لا قيمة لها!





طفل فى عينى امرأة!

عندما صعدا إلى السيارة، سألها مايكل :

«إلى أين ؟! »

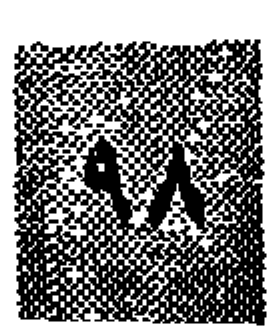
قالت :

«إلى البيت يا حبيبى!! »

بدت كلمة «حبيبى» هذه المرة طبيعية للغاية، بل ... بل ربما كانت ضرورية! هكذا فكر مايكل دارتسون وهو يندفع بالسيارة فى طريق العودة!...

أصبحت جلستهما فى الشرفه المطلة على البحر المتوسط، وكأنها مأواهما الوحيد ... كان مايكل قد أخذ حماماً وبدل ملابسه، وسار إلى الشرفة فى انتظار ميلانى أن تلحق به... اعترف الآن، وهو جالس وحده، أن ثمة شيئاً فى داخله يدفعه دفعا إلى طاعة هذه الفتاة، بل اعترف أنه إنما كان يقاوم لسبب بدا له فى تلك اللحظات ساذجاً... كان يقاوم انجذابه نحوها لأنها أصغر منه بأكثر من ربع قرن من الزمان، وكان لابد وأن يتبع هذا الاعتراف اعتراف آخر، هو أنه لا يريدها فقط، بل إنه ينتمى إليها كما تنتمى هى إليه وكأن كلاً منهما قد خلق للآخر...

طالت غيبة ميلانى فنهض إلى السياج واستند إليه وألقى بنظراته إلى المياه وترك نظراته كى تستحم فيها... كان السؤال الذى يدور فى ذهنه الآن، حول كل هذا الذى فكر فيه. هل هذا معقول؟!



«نعم !!»

هكذا جاءه صوتها من خلفه فاستدار نحوها باسما وهو يتساءل إن كانت هذه الفتاة تستطيع قراءة أفكاره وهي بعيدة عنه؟!... هتفت ميلانى فى رد مباشر على ما جال فى ذهنه:

«نعم يا مايكل... إن التليباثى أصبح اليوم حقيقة علمية لا جدال فيها!»

«ولكن ... لماذا نحن ؟!»

«هل تستطيع مقاومة أمواج البحر ومياه الأنهار؟!»

ابتسم مقتربا منها فعادت تقول :

«هل تستطيع إيقاف الرياح وإسقاط السحب؟!»

«ميلانى؟!»

«ان ما تشعر به ليس سوى مقاومة طبيعية لأنك تخشى الخوض فيما لا تعرف!»

« ربما كان الأمر كذلك؟!»

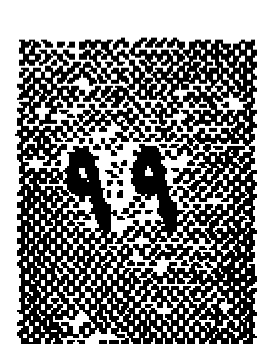
اقتربت منه، التصقت به... لم تعد الآن فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها، بل كانت بالفعل امرأة ناضجة، بل كانت امرأة فى ذروة نضجها وجمالها... سرى صوتها فى سكون الليل وكأنه قيثارة تعزف:

«ألا تريد أن تقرأ ما فى رؤوس الآخرين؟!... ألا تريد أن تكشف كيف يفكر عملاؤك، وكيف يفكر رؤساء الدول وقواد الجيوش والأباطرة والملوك؟! »

ارتجف مايكل دارتسون فأحست برجفته فضحكت قائلة:

«لم ترتجف بالله عليك، إن ما أقوله لك ليس إضافة بل هو واقع فيك... أنت كذلك يا مايكل... أنت تستطيع أن تفعل ذلك الآن وأنت معى !»

نظر إليها ذاهلا، كان ما تقوله يفوق خيال أى مجنون، عادت لتضيف :



«جرب ... فقط، ركز تفكيرك فى أى إنسان سواء كنت تعرفه أو لا تعرفه، استحضره إلى ذهنك ولسوف يأتى طائعاً، تستطيع أن تجول خلال عقله وأنت تعرف عنه كل ما تريد أن تعرف... فقط، ما عليك إلا أن تجرب!»

ضحك مايكل وهو يقفز فى مكانه دائرا حول نفسه معبرا عن سعادة غريبة :

«ولكنى لا أريد ... صدقينى يا ميلانى أنا لا أريد الآن سوى...»

توقفت الكلمة بين شفتيه، منعها فأطلقت ميلانى ضحكة جلجلت فى الفضاء ،كأنها طير خرافى يعزف لحناً لا حد لجماله... فهل وقع فى الحب؟!

«لم لا نتحدث ونحن نحتسى كأسا... إننا الآن، والآن بالذات فى حاجة إليه!»

عندما جلس فى مقعده فى بهو البيت جلست تحت قدميه... قال لنفسه الآن إنه لا يريد شيئا أكثر مما هو فيه ... أنه يملك من المال ما يستطيع أن يعيش به حتى آخر العمر... ثم... ثم هبط بعينيه إلى حيث كانت ميلانى تتطلع نحو وجهه وقد ارتكزت بذقنها فوق ركبته... ثم إن ميلانى... قالها لنفسه وهو موقن إنها تعرف سواء قالها أم لم يقلها ...

قالت ميلانى:

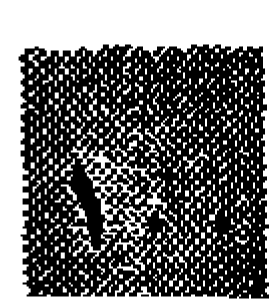
«لعله من المناسب الآن أن تعرف كل شئ ! »

رفع حاجبيه دهشة، فأوضحت:

«إنك الآن أكثر هدوءا وأكثر تقبلاً للأمر... ولذلك ، فإنى أستطيع أن أقول لك كل شئ بوضوح... لأنه يجب عليك أن تتحمل مسؤوليته؟!»

«مسؤوليته ... عم تتحدثين ؟»

نهضت ميلانى كى تجلس أمامه... استبدلت كأس المياه المعدنية الخاصة بها بكأس من الشراب القوى ... بدت له فى تلك اللحظة وكأنها أسطورة بكل ما



تحمل الكلمة من معنى، اكتشف أنه إنما كان يبحث عن هذه الصورة منذ سنوات موغلة فى البعد ... لم تكن الصورة بهذا الوضوح ولكنها كانت هى هى ... تلك الصورة الغامضة لامرأته أو فتاته ...

«دعك من كل هذا وأعطنى كل انتباهك !»

نظر إليها وكان سعيدا:

«هل تذكر شجرة العائلة الأخرى التى كانت مع خريطة عائلة نوستردام؟!»

«شجرة عائلة راسبوتين؟! »

هكذا سألها فسألته بدورها :

«هل قرأت أسماء هذه الشجرة جيدا ؟ »

مال نحوها وكان يهدهدها وهو يقول :

«إن ملايين البشر قرأوا قصة راسبوتين وعرفوا عنه الكثير يا صغيرتى... لكن قلة نادرة هم الذين يعرفون اسم قاتله!!»

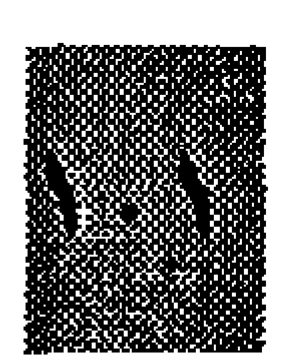
«معنى هذا أنك لم تقرأ الأسماء الأخرى؟!»

«كان اسم راسبوتين كافيا كى يخفى كل الاضواء عمن حوله! »

«حتى ولو كان آخر اسم فى آخر فرع فى الشجرة هو ميلانى؟!»

لم يكن الأمر مفاجأة له ... خطر له هذا الخاطر كثيرا لكنه لم يتوقف عنده، فى بعض الأحيان كان يتساءل عن سر وجود شجرة عائلة « جريجورى الفيموفوفتش راسبوتين »، ما دام اهتمام ميلانى كله كان منصباً على عائلة كابولا التى ينتمى إليها نوستردام الذى ينحدر هو من صلبه ... جاءه صوت ميلانى بالغ الوضوح :

«كان جدى يملك من القدرات ما لست فى حاجة إلى ذكره فلابد أنك تعرف عنها الكثير... ولقد ورثت عنه كل تلك القدرات، فأنا الوحيدة الباقية من



سلالته! »

«ثم ماذا ؟!»

هكذا سألها فأجابت :

«لقد أثبتت لك التجربة أنك تستطيع أن تقرأ أفكاري، كما أثبتت لك أني أستطيع أن أقرأ أفكارك!»

«أعترف أن هذا حقيقي ! »

«إنك من سلالة فذة، وكذلك أنا !»

ومضت الحقيقة في ذهنه كبرق لا يخفى عن عين أعمى فقفز ناهضا.

«إنك لا تهرب مني، ولكنك تهرب من تلك الصورة! »

راح يهرول نحو الشرفة وكأنه يهرب، بل إنه كان بالفعل يهرب. خرج إلى الهواء وفرد ذراعيه واحتضن الليل وملأ صدره بنسيم البحر المنعش ... ثم تنفس الصعداء!

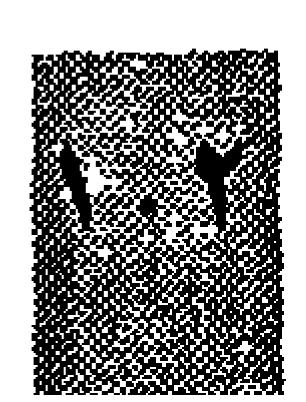
كانت ميلاني على حق عندما صاحت مطاردة اياه بأنه يهرب من صورة... هنا... في هذا المكان... هنا ... بجوار السياج كانا يقفان منذ دقائق... هنا... عندما انطوت تحت جناحه وأطلت عليه بوجهها الأسطوري. هنا.... عندما لم تعد فتاة في الثامنه عشرة بل امرأة ناضجة في ذروة نضجها وجمالها... هنا .... عندما ألقى بنفسه في لجج عينيها، رآه ... في عينيها رآه.... رأى طفلاً!

«إنه ابنك !»

استدار نحوها هاتفاً في سخرية :

«عم تتحدثين ؟!»

«لا تعد إلى المكابرة!»



«إنه مجرد خيال!»

«أن ترى طفلا فى عينى امرأة ليس خيالا يا مايكل! »

«أنت مجنونة! »

«إن هذا الطفل الذى شاهدته فى عينى، هو ولدك! »

«ألا تكفين عن هذا ؟!! »

«وولدى ؟!»

«ميلانى!! »

«إنه ولدنا معا! »

أراد أن ينطق لكنها همست:

«إنه أقوى طفل فى العالم! »

***

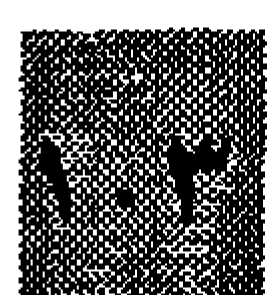
استيقظ مايكل دارتسون فى الصباح دهشا... ذلك أنه حاول أن يتذكر ما الذى حدث بالأمس دون جدوى ... التفت إلى جواره وكانت ميلانى مستغرقة فى النوم مثل ملاك غافل... ركز تفكيره فلم يعثر فى وجدانه إلا على تلك الشعلة الملتهبة من الحياة التى تدفقت فى عروقه كما لم تتدفق من قبل ... لا ... لا لم يحدث... هو موقن من أنه لم يحدث ذلك الذى كان يخشاه، فما الذى حدث إذن؟!... جاءه صوتها ناعسا وكانت تقول :

«لا شئ أكثر من أنك قاومت حتى سقطت إعياء ! »

التفت نحوها فانتبه إلى أنها كات راقدة إلى جواره بكامل ملابسها فأدرك أنه كان على حق فهدأت نفسه ...

نهضت جالسة وهى تقول مفسرة:

«لقد اضطررت إلى أن أظل إلى جوارك طوال الليل حتى غلبنى النعاس!»

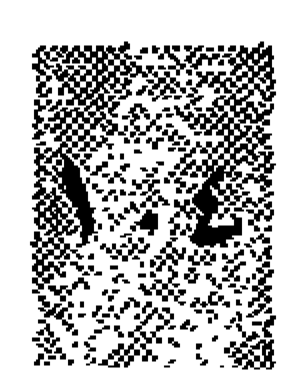


«ما الذى حدث إذن ؟!»
«أنت تريد و لا تريد!»
«هل تفسرين أكثر ؟!»
انزلقت مغادرة الفراش وهى تقول :
«أنت تريد طفلنا ولا تريده يا مايكل!»
«أى طفل هذا الذى تتحدثين عنه؟!»
قالت وهى تغادر الغرفة:
«لقد أرهقتنى طوال الليل ولست على استعداد لمزيد من الإرهاق ! »
قبل أن تدلف من الباب إلى الخارج تمتمت كالغاضبة :
«سأتناول طعام الإفطار فى الطابق الأول !»

***

وأصبح مايكل دارتسون وحده !!

كثيرون هم هؤلاء الرجال الذين يستمتعون بحمام الصباح... تبدو لهم طقوسهم من حلاقة الذقن إلى غسيل الجسد كنوع من التجديد والاستعداد لحياة مختلفة ... وكان مايكل دارتسون من هذا النوع الذى تمتعه تلك الطقوس أيما إمتاع... ولقد صفا ذهنه قليلا وهو يقف تحت شلال المياة المتدفق من الدش... لم يكن فى حاجة إلى التفكير كى يؤكد لنفسه أن ميلانى على حق... فتح صنبور المياه الباردة وترك لرعشة البرودة أن تسرى فى جسده ... لا مجال لإنكار حقيقة أنه رأى طفلاً فى عينيها... ولا مجال لإنكار أنه يريد هذا الطفل الذى تتحدث عنه... وهو يستطيع تفسير كل هذا، وما من رجل جاوز الخامسة والأربعين، لا يتمنى أن ينجب طفلا ... إنه الدليل على وجوده، الدليل على قدرته الباقية على الحياة والاستمرار... ولقدكان عندما جلس على مائدة الإفطار، قد استعاد نشاطه وهدوءه أيضا!



«لماذا تقاوم الحقيقة؟! »

كان يبتسم وهو يسألهانى رقة :

«أية حقيقة؟! »

«حقيقة أن كلا منا يستطيع قراءة أفكار الآخر! »

ألقى بالفوطة جانبا وتناول صندوق سجائره :

«هل تمانعين؟! »

امتدت يدها إلى الولاعة كى تشعل له السيجارة، تماما مثلما كات تفعل نورما فى تلك اللحظات الهنيئة من حياتهما... نفث دخان السيجارة وقرأ كلاما كثيراً فى رأسها :

«لم لا تقولين كل ما عندك؟ »

انتقلت إلى المقعد المجاور له وهى تقول فى حرارة :

«إننا من الممكن أن نصبح عرايا أمام بعضنا البعض.. عرايا فكريا ونفسيا ... إننا نستطيع أن نتبادل الحديث وكل منا يبعد عن صاحبه آلاف الأميال، ولن يحتاج الأمر إلا لقليل من التدريب! »

«وما فائدة كل هذا ؟! »

«أن تتزاوج أفكارنا وقدراتنا! »

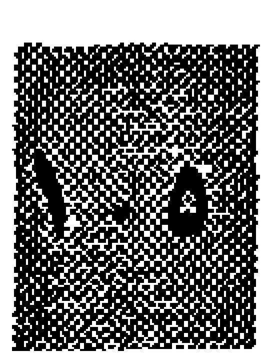
«وما فائدة هذا أيضاً؟! »

«أن ننتج قدرات بلا حدود ! »

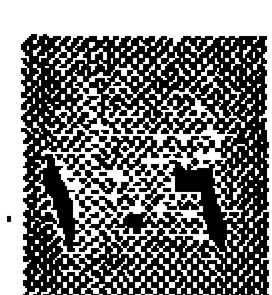
«وماذا سنصنع بها ؟! »

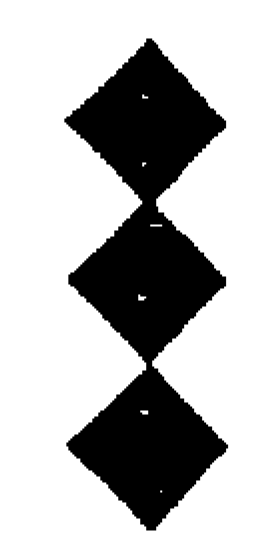
«سننجب طفلاً يحكم العالم !! »

عندما قالت ميلانى ما قالت، انتابه الرعب حقا ... كانت ثمة حقيقة جديدة تبزغ أمام عينيه ... فهل هو راغب فى أن يحكم العالم بطفل هذا شأنه وتلك قدراته؟!



ابتسم قائلا وكأنه يسلم لها قياده تماما:
«ماذا عن خطوتنا التالية؟! »
قالت وهى تسدد نظراتها إلى عينيه:
«أسبانيا! »
«لماذا أسبانيا؟!»
«لأن جدتك الكبرى كانت أسبانية !!!»
«وإلى أى مكان سنذهب فى أسبانيا، إنها بلاد شاسعة! »
«إلى جراندا... إنها المكان الوحيد الذى توصلت إلى أن جدتك كانت تنتمى إليه!»
أزاح الصينية جانبا، أحس بنظراتها تكاد تخترق عظامه، كان يعلم سر تلك النظرات، صاح موغلاً فيما كان يسعى إليه :
«عندما ذهبنا إلى آل لانوت كنا نعرف لماذا نذهب، ولذلك عثرنا على العكاز... ولكننا لا نعرف أحداً فى أسبانيا، ولا نعرف أحدا فى جراندا»!
قالت ميلانى وهى تميل نحوه وتدق نظراتها فى عينيه :
«إنك مازلت تقاوم !»
«أجيبى عن سؤالى!»
«سوف نعرف كل مانريد ... ولسوف يقودنا العكاز! »
***
كان عليهما أن يجهزا نفسيهما للسفر إلى أسبانيا فورا، هكذا قررا!





انهيـــار الفـندق !

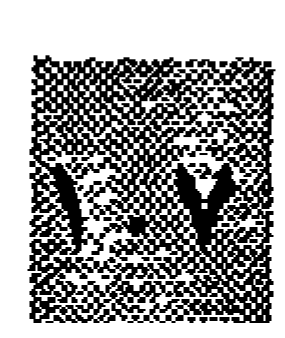
كان يريد الابتعاد عنها ولو لثوان كي يرتب أفكاره ... أدرك أنها تستطيع أن تقرأ أفكاره حقا إذا ما كانت هناك أفكار واضحة، أصابته فكرة أن ينجب طفلا يحكم العالم بالذعر... لسوف يحكمه بالسحر والتنبؤ ومعرفة خبايا الآخرين وضمائرهم... كان موقناً أشد ما يكون اليقين من أن ميلاتى كانت على حق فى كل كلمة قالتها ... لم يكن أمامه سوى سبيل واحد هو أن يطيع، كان مدركا إلى أن هناك قَدرا يساق إليه ولا مفر ... عندما انطلقت بهما السيارة صوب الحدود الأسبانية اعترف لميلاتى أنه مازال غير فاهم لجدوى السفر إلى أسبانيا والبحث عن جدته الكبرى . كان يعلم أنها أسبانية وأنها سليلة عائلة عريقة وأن زواجها من جده كان زواجا سياسيا ... كان يعلم كل هذا ، وإذا كان قد ورث ما ورثه عن جده الحقيقى، ذلك الفرنسى « رينيه مارسيل»، فما جدوى البحث عن جدته؟!!

جاءه صوتها وأحس بها تلتفت نحوه متسائله :

«هل تريد حقا أن تفهم ؟!»

«نعم!»

«انتبه جيدا إلى ما سوف أقوله يا مايكل... إننا نسعى وراء مجهول علينا أن نكتشفه ولسوف نسعى إليه أرادنا أم لم نرد . هذا المجهول لابد وأن



تكتمل عناصر الكشف عنه حتى نعرفه وحتى تمتلك كل قواك! »

«لقد قلت إن فى العكاز قوة خارقة! »

«ألا تصدق ؟! »

«بل أصدق ... بل إنى موقن من هذا فلقد أحسست حقا بالألم يسحق ساقى! »

«ولكن العكاز ينتمى إلى جدك فقط، ولابدأن هناك شيئا ينتمى إلى جدتك! »

«ثم ماذا ؟! »

«ثم ، إذا ما التقى الشيئان، اجتمعت لك كل أسباب الميراث! »

... ...

... ...

عندما عبرت بهما السيارة نقطة الحدود وأصبحا داخل الأراضى الأسبانية سألها:

«هل تعرفين الطريق إلى جراندا ؟! »

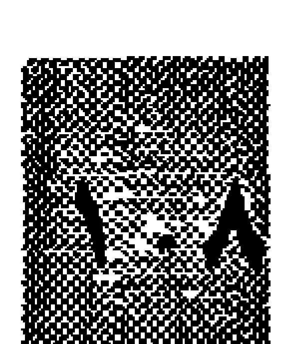
«نعم! »

«هل جئت إلى هنا من قبل ! »

«هذه هى المرة الأولى! »

التفت نحوها باسماً ساخراً لكن شيئا ما حدث جعل الدماء تجمد فى عروقه... كانت ميلانى شاحبة شحوبا عظيما، وكانت تحدق فيما أمامها وأنفاسها تتلاحق، عاد ببصره إلى الطريق وكان طريقا جبليا عاديا... امتدت يدها إلى يده وكانت باردة كالثلج، هتف دهشا :

«ميلانى !! »



«نحن في الطريق القادم إلى اليمين! »
«ولكن»
صرخت مقاطعة :
«افعل ما أقوله أرجوك!»
كاد يتجاوز الطريق الذي أشارت إليه لكنه، بمعجزة، استطاع أن يدير عجلة القيادة فمالت السيارة إلى إليمين ميلاً شديداً ، وبصعوبة بالغة استطاع أن يعيدها إلى الطريق ، وكان قلبه يخفق بشدة فلقد كاد يهوى من فوق الجبل إلى قرار سحيق... قبل أن يسترد أنفاسه أحس بالأرض تهتز تحت السيارة بعنف... ودوى في الفضاء صوت فرقعة عالية، كانت السيارة على الطريق الآن، داس بقدمه فوق الفرامل فهدأت سرعة السيارة، انثنى بها إلى جانب الطريق حتى توقفت، التفت نحوها فقالت له :
« لا تنظر وراءك، فلقد انهار الجبل ، ونجونا بأعجوبة! »
لم يعد هناك شك في كل ما قالته ميلاني... كان يقف إلى جوارها مشرفاً من ربوة عاليه على الطريق الذي كان من المفروض أن يسلكاه قبل أن تطلب منه إن ينحرف إلى ذلك الطريق الجانبي، فهاله منظر الصخور والأتربة وذلك الانهيار الجبلي المروع ... ولو انها لم تحذره، لكانا معا الآن مدفونين تحت ركام من الحجارة والأتربة. التفت نحوها وكانت ترتجف، أحاط كتفها بذراعه فألقت برأسها فوق صدره وهي تزفر في عنف :
«آه يا مايكل ... آه لو اتبعتني كما طلبت منك سارة ؟!»
قبّل مفرق شعرها ورفع إليه وجهها وهو يقول :
«ألا تخبريني بكل ما تعرفين؟! »
كان النهار قد انتصف، وكان لا بد لهما من العودة إلى السيارة .



«إنى استطيع أن أعبر بك الطرق إلى جراندا فلا تقلق!»

ساد السكون لثوان وكانت السيارة تنطلق فى الطريق عندما قالت ميلانى وكأنها تستسلم أخيرا:

«لقد اغتصب رينيه مارسيل جدتك!»

أطلق من بين شفتيه صفارة فضحكت قائلة :

«هكذا يجب أن يكون الأمر!!»

«آه... أمن أجل ذلك تزوجها جدى الرسمى؟»

هكذا قال فأردفت:

«لم يكن الاغتصاب فى حقيقة الأمر اغتصابا، كانت جدتك فتاة صغيرة عندما سلب لبها ذلك الجندى الفرنسى الأزرق العينين!»

«ماذا تعنين بالله عليك؟!»

«إن الوثائق لا تذكر كل الحقائق!»

«فكيف نعرف الحقائق إذن!»

«بواسطتك!»

التفت نحوها دهشاً، همت بالحديث فصاح:

«ميلانى ... ألا ترين أن الأمر أصبح مركبا أكثر من اللازم؟»

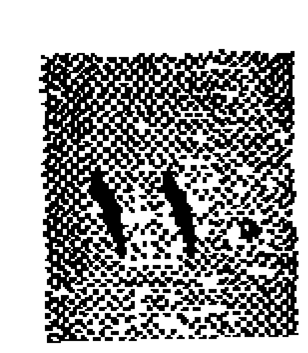
كأنها لم تسمع كلماته، استطردت :

«كان من عاده الفتيات فى ذلك الزمن، خاصة بنات العائلات، أن يعلقن صليبا فى أعناقهن!-»

«وهل تبحثين عن صليب جدتى؟!»

«لست موقنة من هذا!»

«إذن، فلماذا ......»



قاطعته :

«إن الوثائق تقول إن جدتك كانت تمتلك صليبا ذهبيا مرصعاً بالماس! »

«ثم ؟!»

هكذا تساءل فأضافت :

«لكن أحدا لا يعرف شيئا عن هذا الصليب ! »

قالت هذا وساد الصمت تماما...

كان العكاز راقدا فى المقعد الخلفى للسيارة، وكان مايكل يعلم أن هذا العكاز هو دليلهم الوحيد فى تلك الرحلة الغريبة ... آثر أن يلوذ بالصمت فلقد كان التعب قد بدأ يأخذ منه كثيرا... عبرا الحدود إلى سانت رفائيل، إلى سانت مكسيم، ثم إلى سانت تروباز... وكانا، وهما فى طريقهما إلى الباكوتا، قد اضطرا، نظراً لانهيار الطريق، إلى المرور بكل تلك القرى والمدن الصغيرة... خاضا بالسيارة وسط شوارع المدينة حتى توقفا أمام فندق بدا لهما جيدا تماما، وكان اسمه « كلاقيل» ... همّا بمغادرة السيارة عندما أمسكت يد مايكل بيد ميلانى :

« لا ... لا يا ميلانى؟ »

التفتت نحوه فى دهشة :

«ما الذى تعنيه بالله عليك! »

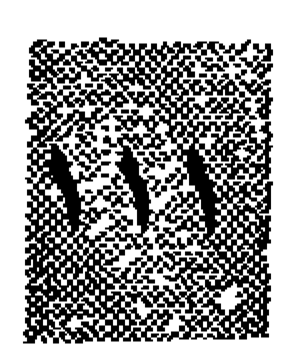
«لست أريد النزول فى هذا الفندق! »

حدجته بنظره متسائلة فابتسم!

«ماذا هنالك يا مايكل؟!»

قال :

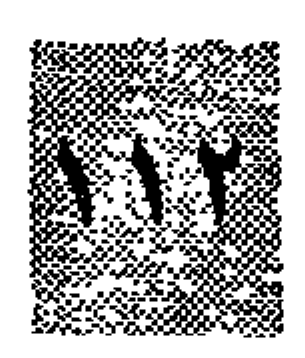
«لست أدرى ... إنى فقط لا أريد أن أنزل فى هذا الفندق، وهذا كل ما فى الأمر! »



قال هذا وهو يدير الموتور وينطلق بالسيارة بحثا عن فندق آخر. لكن السؤال ظل معلقا في ذهن مايكل: لماذا رفض النزول فى الكلافيل ؟!
ولم يكن يدرى أن الجواب سوف يأتيه بعد بضعة أيام مروعاً!!

***

عندما وصلا إلى الفندق الذى اختاره، كان الوقت غروبا، وكان مايكل متعبا مجهدا ... حجزا غرفتين واتفقا على اللقاء فى قاعة الطعام لتناول العشاء فى الثامنة... قبل أن يفترقا سألته ميلانى :
«مايك ... لماذا رفضت النزول فى الكلافيل؟!»
أجاب في حيرة:
«لست أدرى يا ميلانى ... إنه مجرد إحساس!»
«ولذلك فأنا أسألك!»
غير أنه لم يكن يملك الإجابة. افترقا وفى عينى ميلانى نظرات غريبة... أخذ مايكل حماماً فأحس بالانتعاش... ولم تكن ميلانى وحدها هى المشغولة بذلك الرفض الذى أبداه ، فلقد كان « الكلافيل» فندقا جديدا تم افتتاحه منذ بضعة أسابيع، كما كان فى نفس الوقت فندقا فخما ... فما سبب هذا الرفض؟!
على مائدة العشاء راحا يتبادلان الحديث... أراد الهرب من موضوع الفندق فعاد إلى موضوع جدته ... قال لميلانى :
«إن معنى كل ما قلتيه عن صليب جدتى المفقود، أن رينيه مارسيل قد أخذه منها!»
قالت :
« أو أعطته إياه! »
«إذن، فلماذا لا نعود إلى مزرعة لانوت ؟!»



«لقد ثبت من الوثائق أن الصليب لم يكن ضمن تركة مسيو مارسيل أيضاً!»

«ماذا إذن ؟!»

سددت إليه نظرة نفذت من عينيه إلى صميم عقله، وكان يعلم الآن ـ دون كلام ـ أن الأمر يتوقف عليه، وأنه هو بالذات الذى يستطيع أن يقود ميلانى إلى هذا الصليب الذهبى المرصع بالماس!.

عندما انتهيا من عشائهما انتقلا إلى بار الفندق ... اختارا ركنا هادئا وكان مايكل يعلم أنه لابد لهما من وضع خطة للغد قبل أن يأويا إلى غرفتيهما !

«هل تحب أن تدرس الخريطة الليلة، أم نؤجل هذا للصباح؟»

«أية خريطة؟»

هكذا سأل فأخرجت من حقيبة يدها ورقه مطوية وفردتها أمامه فإذا هو أمام خريطة تبدو وكأنها رسمت منذ قرون... بدت له الخريطة غامضة كل الغموض... تمتم بكلمات تعنى عدم فهمه لما يراه فقالت :

«هل تذكر أبيات الشعر المكتوبة فى الأوراق التى بقيت من تركة جدتك؟!»

«لقد كانت بالأسبانية، وأنت تعرفين أنى لا أفهم فى تلك اللغة حرفا!»

«إنها تتحدث عن أشجار الزيتون!»

«إنى أذكر أنك قلت شيئا من هذا !»

«إن أغنى منطقة فى أسبانيا تعج بأشجار الزيتون، وهى تبعد عن هنا خمسة كيلومترات!»

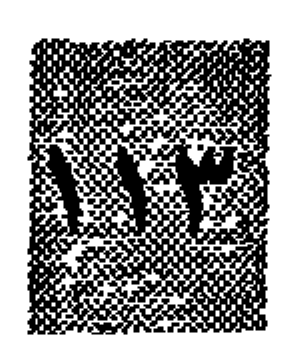
فى سأم من مل كل شئ، أزاح الخريطة من أمامه :

«لندع هذا للصباح!»

طوت ميلانى الورقة وهى تنظر إليه بجانب عينها، ثم ما لبثت أن سألته:

«مايكل ... ماذا هناك؟!»

«لاشئ ... لاشئ!!»



قال هذا وهو ينهض... دلفا إلى المصعد، وعندما كانا يغادرانه فى الدور الرابع قالت فى أسى:

«انى أعلم أن هناك ما يضايقك!»

«هذا صحيح ... ولكن صدقينى إنى لا أعرفة! »

«إن الأجدى أن تبذل جهدا كى تعرفه، فقد تكتشف شيئا هاما!»

قالت هذا وهى تشب على أطراف أصابعها كى تطبع على وجنته قبلة :

«أتمنى لك أحلاما سعيدة! »

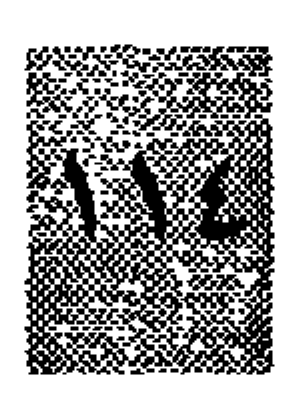
... ...

... ...

دلفت إلى غرفتها مسرعة وعاد مايكل إلى غرفته وعقله مشغول بشئ مجهول!!... كان الليل قد انتصف منذ ثلاث ساعات عندما استيقظ مايكل دارتسون من نومه فزعا... هب جالسا فى فراشه وثمة أصوات رهيبة تملأ أذنيه... كان الصوت لمثقاب من تلك التى تستعمل فى هدم المبانى الأسمنتية... نهض من فراشه وأطل من نافذة الغرفة ... كان الشارع خاليا وكانت المدينة هادئة تماما... لكن الصوت ظل يدوى فى أذنيه حتى كاد يصاب بالجنون... وما هى إلا دقائق حتى دوى صوت قرقعة عالية كتلك التى تحدث عند تشقق مبنى هائل، ثم أعقبها صوت انهيار رهيب فقفز إلى الخلف وهو يهتف :

«الكلافيل ... فندق الكلافيل!»

كان مايكل قد تعود منذ صغره على النوم بالبيجاما دون ملابس داخلية... وجد نفسه يسير نحو الباب فقاوم، لم يكن طبيعياً أن تحدث تلك الأصوات بعد منتصف الليل بثلاث ساعات وبمثل هذه القوة وذاك الضجيج وتظل المدينة رغم هذا غارقه فى النوم ... وسرعان ما انهارت مقاومته... كان صوت المثقاب يعود أقوى مما كان... وصوت الانهيار يصيبه بزلزال دفعه لأن يغادر الغرفة



لاهثاً،كان ثمة خاطر قد سيطر عليه. لابد لنزلاء الكلافيل أن يغادروه. أن الفندق ينهار... عندما لمحه موظف الاستقبال بالفندق وهو يغادر المصعد في البهو أصابه الذهول :

«سيدى ... هل هناك ما يزعجك؟»

كان مايكل يقف أمام الشاب لاهثاً جاحظ العينين. لم يقل شيئا سوى:

«الكلافيل... إن الكلافيل ينهار!»

«مستر دراتسون... إن الكلافيل ... ...»

ولم يكمل الرجل جلمته، فلقد اندفع مايكل بالبيجاما مغادرا الفندق لا يلوى على شئ!

... ...

... ...

«آنسة ميلانى... إنى آسف لأنى أيقظتك فى مثل هذه الساعة؟!»

جاء صوت ميلانى عبر سماعة التليفون :

«ماالذى حدث للسيد دارتسون؟!»

«لقد غادر الفندق بالبيجاما وكان حافيا أيضاً!»

«إنى فى الطريق إليك !!»

بعد دقائق كانت تقف أمامه فى البهو، سددت إليه عينيها وهى تسأله :

«قل لى ما الذى حدث بالضبط!»

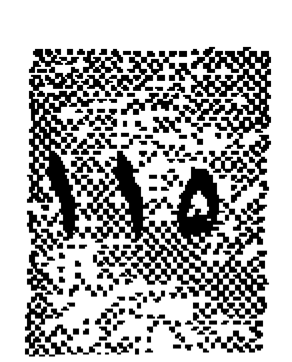
«لاشئ أكثر مما قلته لك !»

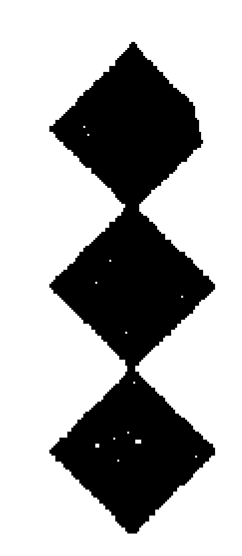
«ألم يقل شيئا قبل أن يغادر الفندق؟!»

«لقد قال إن الكلافيل ينهار... لابد أنه شرب ليلة الأمس أكثر من حاجته!»

دهش الشاب عندما رأى ميلانى تندفع نحو الطريق هاتفة:

«تعال معى من فضلك!»





ســـــر المقـــبـــرة

بالبيجاما فوق اللحم حافي القدمين، غادر مايكل دارتسون الفندق إلى الطريق، قطع المسافة حتى فندق الكلافيل في ثوان، كان يعدو بكل قواه... عندما وقف أمام الفندق الجديد بطوابقه الخمسة دق قلبه في عنف .كان الفندق أمام عينيه ينهار ... بطوابقه الخمسة كان ينهار، بكل ما فيه ومن فيه كان يتحول إلى أنقاض في دوى وقرقعة تصم الآذان... والميدان خال ولا أحد هناك، ولم يكن أمام مايكل سوى الصراخ، فراح يصرخ ويصرخ ويحذر ولا أحد هناك.. لاهث الأنفاس راح يتلفت حوله متسائلا!... أين أهل المدينة، أين رجال المطافىء والإنقاذ، أين الجيران وسكان العمارات المجاورة والمقابلة، هل مات الجميع أم أن صمماً أصابهم... كان الميدان خاليا، وهو يقف في منتصفه ولاشئ، ولا أحد، فعاد يصرخ من جديد!!...

لم يكن من عادة مايكل أن يخلع ساعته قبل النوم. لذلك، وعندما بح صوته من الصراخ لزم الصمت فإذا الهدوء يسود كل شئ وكان صوت المثقاب وقرقعة الانهيار قد توقفت . نظر في ساعة يده فوجدها تشير إلى الثالثة والربع صباحا... سمع أصوات أقدام تعدو وتقترب منه، التفت، وكانت ميلاني ومعها موظف الاستقبال في الفندق يعدوان نحوه وقد ساد الفزع ملامحها.

« مايك ...- ماذا هنالك ؟! »

أشار مايكل نحو فندق الكلافيل ثم التفت نحوه فتوقفت الكلمات في حلقه! كان الفندق أمامه شامخا، جديدا جميلا لا معا... وكان كل شئ يبدو طبيعيا، الميدان والحياة وحتى السكون في مثل هذا الوقت من الليل... راح يلهث وهو يردد البصر فيما بين ميلاني والفندق، ولقد أدركت ميلاني ـ هكذا كان موقنا ـ كل شئ، فقالت في حسم الأم التي تأمر وليدها :

«هيا بنا!! »

وعندما أطاع عائداً معها إلى الفندق ... كان يرتجف من البرد والفزع معا!... في طريق العودة إلى الفندق، اتخذ مايكل قرار بألايخبر ميلاني بشئ ... كان يعلم أنها قرأت أفكاره وتعرف كل شئ بالتفصيل ورغم هذا كان قراره حاسماً ... أدخلته الفراش ودثرته بالبطاطين وطلبت له شراباً ساخنا وراحت ترعاه كما ترعى الأم وليدها... استسلم لها مايكل وهو يستشعر لذة وامتناناً بلا حدود، لكن قراره بعدم البوح بما حدث كان نهائيا... أدرك الآن، ورغم كل الظواهر التي صادفته من قبل، أن ثمة شيئاً غير طبيعي في شخصه... في إصرار رفض فكرة أن كل ماشاهده وسمعه كان نوعاً من الحلم والهلوسة، لا صوت المثقاب ولا قرقعة الانهيار ولا مشهد الفندق... ذلك أنه منذ استيقظ من النوم، راح يلح على نفسه بالسؤال إن كان الأمر حلماً أو خيالا فوجد الأمر واقعاً لا جدال فيه... فما هو هذا الشئ الغريب في رأسه أو عقله أو جسده أو روحه؟!

هل تقوده ميلاني إلى الجنون ؟!

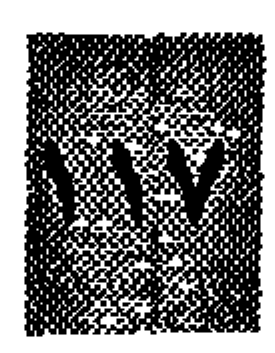
«ألا تريد أن تقص عليّ ما حدث ؟! »

كانت في صوتها رنة عتاب تذيب الحجر، وبالرغم من ذلك سألها :

«ما الذي سوف نفعله في الغد ؟! »

أدركت تصميمه فاستجابت لرغبته قائلة :

«هذا يتوقف عليك! »

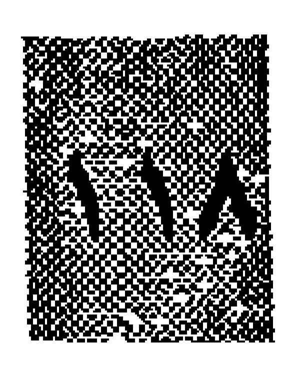


كان صوته جافا وكان حاسما وحازما لسبب لا يدريه ... جاء صوتها ملبياً:
«ليس أمامنا سوى طريق واحد!»
«وما هو ؟! »
«مزارع الزيتون! »
استجاب متسائلاً :
«مزارع الزيتون ؟! »
« ليس أمامنا سواها »
« ثم ؟! »
«ثم هناك العكاز و...... أنت ؟!»
«تقصدين ذاكرتى ؟! »
«هذا هو بالضبط ما كنت أعنيه !»
«وهل تعتقدين حقا أن ذاكرتى والعكاز، سوف يقودانكا إلى الصليب الذهبى المرصع بالماس؟!»

نهضت ميلانى وهى تلتقط صندوق سجائره وتشعل لنفسها سيجارة . كانت هذه هى المرة الأولى التى يراها فيها تدخن، أدرك أنه بدأ يستعمل ملكاته بقدرة تتساوى مع ملكاتها كما أدرك أنه الآن قادر على اتخاذ القرار وحده... استدارت ميلانى نحوه وكانت تقف الآن فى الركن البعيد عنه من الغرفة... قالت :

«لو أنك تتبعت معى الأوراق والخرائط والوثائق والخطابات لأدركت بسهولة أن جدتك الأسبانية هى الأخرى، كانت تملك بعضاً مما يملكه جدك!»

نظر إليها وكان فى حاجة إلى مزيد من التفسير، فلم يكلف خاطره مشقة السؤال وكان يعلم أنه الآن يستطيع مخاطرتها بذهنه دون حديث، وقرر أن يستعمل تلك الملكة!... ردت ميلانى على خواطره قائلة :



«إن العلاقة بين جدك وجدتك كانت فريدة فى نوعها، لقد كان الأمر اغتصاباً فى ظاهره، لكنه فى حقيقته كان حباً جنونياً... كان نوعاً من الاتحاد لا يحدث إلا فى النادر! »

«هل أحبته جدتى؟!»

«نعم، فتنت به !»

«وماذا عن قواها الخارقة ؟! »

«ربما كانت كامنة فيها ولست أعرف مصدرها حتى الآن أو ... ...»

لاذت ميلانى بالصمت وبدت وكأنها تبذل مجهودا جباراً فى التعبير.

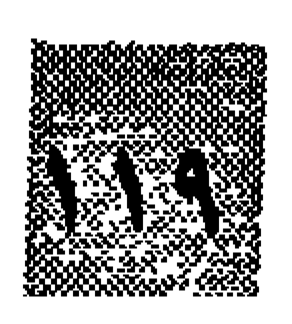
«أو ؟! »

هكذا تساءل فرفعت إليه عينيها وكان وميضهما يواجه الآن وميضاً مماثلاً:

«أو أنه، لفرط حبه لها هو الآخر، بث فيها جزءاً من قدراته ! »

***

عندما غادرته ميلانى كى تأخذ قسطاً من الراحة قبل رحلة الغد المنتظرة، راح هو يفكر فى طرق ملتوية وبسرعة... راح ينتقل من موضوع إلى موضوع دون ضابط أو رابط، كان يشعر، بل كان موقنا أن ميلانى تقرأ كل ما يجول فى خاطره، ولقد قرر أن يوقعها فى الحيرة ، وأن يتحكم فيها بدلا من أن تتحكم هى فيه. وهكذا وجد نفسه، فى غضب - ودون أى مبرر واضح لديه - يرفض فكرة ذلك الطفل الذى يحكم العالم!... لكنه، فى نفس الوقت، لم يستطع أن يرفض ذلك الذى رآه وسمعه خاصة بفندق الكلاقيل..-وكان الآن فى مأزق، مخرجه الوحيد، أن يساير ميلانى حتى تحين الفرصة المناسبة لـ ... لماذا ؟!... لأى شئ؟! ......



هذا ما لم يدره مايكل دارتسون. لكنه كان موقنا أشد ما يكون اليقين، أنه بالغ هذا المجهول، الذي يحيره، سواء أراد أو لم يرد!

***

فى اليوم التالى كان مايكل دارتسون يعرف أنه مقبل على نهاية هذه الأحداث الغريبة ... كان يشعر أنه لابد من وضع نهاية لكل هذا ... إنهاأحداث تصلح لأن تكون قصة مثيرة يقرؤها وهو ممدد فوق مقعده فى شرفة قصره الصغير المطل على البحر المتوسط لكنها لا تصلح لأن يعيشها إنسان سوىّ ... وهكذا، وقبل أن يغادر فراشه، كان قد اتخذ قراراً بألا يفكر فيما يجب أن يفكر فيه مهما كانت الحاجة إلى ذلك ... وكان هذا هو الطريق الوحيد للهرب من متابعة ميلانى الفكرية له!

على مائدة الإفطار لزم الصمت ، ولم يكن مستغرقا فى التفكير وإن كان مستغرقا فى مراقبة ميلانى... لزمت الصمت هى الأخرى وكانت بالقطع تدرك ما يفعله مايكل وإن كانت لا تعرف أى طريق سوف يسلك. فى السيارة التى كانت تقطع بهما الطريق إلى مزارع الزيتون الغنية سألته ميلانى :

«إنك لازلت تقاوم يا مايكل!»

ابتسم مرحا وهو يقول :

«لقد كففت عن المقاومة منذ وقت طويل !»

«ولكن الشك لازال يساورك !»

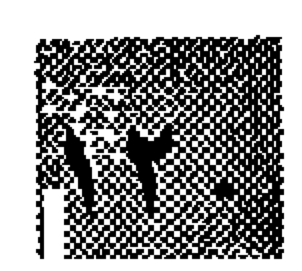
«لم أعد أشك فى شئ ، كما أنى لست موقناً من شئ!»

«ماذا تعنى بالله عليك؟»

هدأ من سرعة السيارة والتفت إليها وكان فى ذروة صدقه وهو يقول :

«كل ما أبغيه أن ننتهى مما نحن فيه! »

***



لاذا بالصمت مرة أخرى حتى لاحت لهما مزارع الزيتون الشاسعة... أشارت ميلانى بإصبعها قائلة :

«هذه هى مزارع الزيتون ، وعلينا أن نتوقف عند حدودها! »

التفت نحوها دهشا وهو يصيح :

«وماذا نحن فاعلان بعد ذلك، إن المزارع شاسعة ! »

«سوف يقودك العكاز فلا تقلق ! »

عند حدود المزارع توقف بالسيارة، هبطا منها فقالت ميلانى :

«لا تنس العكاز!! »

ما إن لامست يده العكاز فى المقعد الخلفى للسيارة حتى عاوده الألم رهيباً ساحقاً فتقلص جسده.

«هل عاودك الألم مرة أخرى ؟! »

«نعم ! »

«هل تستطيع الاستمرار ؟! »

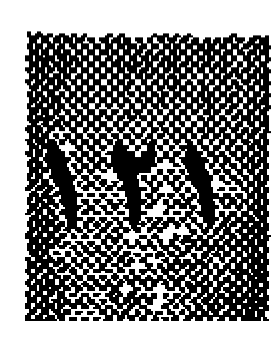
قبضت يده على العكاز فى عنف فسرى الألم فى جسده بالغ العنف .

«هذا هو مانريده بالضبط! »

التفت إليها دهشا وقد اجتاحه الغضب، ففسرت :

«اتبع العكاز ... اترك نفسك لنفسك ولسوف نصل ! »

خف الألم قليلا واستطاع أن يخطو إلى جوارها ... خاضا فى مزارع الزيتون فبدا له الأمر مثل حلم عسير على التصديق... كان يسير إلى حيث لا يدرى وفى أرض لم تطأها قدمه من قبل لكنه كان مسوقا بقوة خفية ... كان الجو حارا والشمس ساطعة، عبرا المزارع ووصلا إلى سفح الجبل فدار حوله حتى طالعتهما غابة صغيرة من الأشجار فتوقف . كان مايكل دآرتسون يلهث... لم



يكن يلهث من التعب وإنما هو شئ آخر جعله يحملق إلى حيث الغابة ...
اقتربت منه ميلانى، أمسكت بذراعه، سألته:

«أين نحن الآن؟! »

«إننا نقترب من المقبرة ! »

«ما الذى تقصده بالمقبرة؟! »

التفت نحوها ذاهلا فلقد أنكر صوته عندما تحدث، بدا له صوته وكأنه صوت إنسان آخر ينطق به لسانه ... راحت ميلانى تتطلع بعينيها نحوه وقد ازداد بريقهما... عادت تسأله :

«ما الذى تقصده بالمقبرة يا مايكل ؟!»

«هناك قبر مجهول فى هذه الغابة!»

«قبر من ؟!»

«واحد من رفيقيَّ رينيه مارسيل!»

«إذن فهيا بنا! »

وعادا إلى السير من جديد، تراكمت الأسئلة فى رأس مايكل دون إجابات، من أين كانت تأتيه تلك الإجابات التى كان يرد عليها بها؟!

«لقد عدت إلى المقاومة من جديد!»

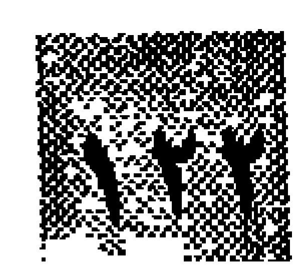
لم يرد عليها ... راحا يخترقان الغابة حتى وصلا إلى بقعة جرداء من الأشجار أو النباتات . توقف وراح يحملق فيما وراء حدود الغابة .

«هل ترى شيئا ؟!»

راح يلهث وهو يقول :

«نعم ... إنى أراها تعدو ! »

«من هى ؟!»



«هناك، خلف حدود الغابة، في الوادي الفسيح!»

«من هي ؟!»

«إيزابيلا؟! »

«جدتك ؟!»

« في الوادي الفسيح ! »

«هل ترى هذا الوادي ؟»

«إنه خلف التل ! »

«هل كانت وحدها ؟!»

«لا ... كانت بصحبة صديقتين ... كن سعيدات، إنهن يضحكن ويمرحن ويلعبن لاهيات عما سوف يداهمهن بعد دقائق!»

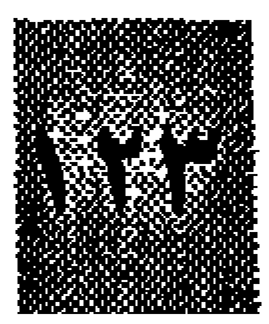
«ألا تهدأ قليلا؟!»

كان مايكل دارتسون يلهث انفعالا وكانت ميلاني هي الأخرى تلهث وكأنها تعدو وراء الكلمات التي راحت تخرج من بين شفتيه... أمسكت بذراعه لكنه انتزع ذراعه وراح يعدو حتى عبر حدود الغابة وصعد تبة تطل على واد فسيح خلف الغابة ... أخذت ميلاني تعدو خلفه حتى وصلت إليه... وكان هو فوق قمة التبة يشرف على واد تحيط به الأكام من كل جانب... كان الوادي خاليا تماما، لم يكن هناك أحد، لكن مايكل راح يتطلع إليه فكأنه يرى بعينيه ماكان يحكيه، يده اليمنى تقبض على العكاز بعنف، وجسده ينتفض انفعالا...أمسكت بيسراه وراحت تقوده إلى صخرة قريبة...

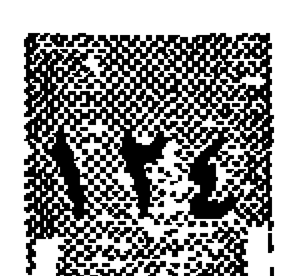
«اجلس هنا ! »

«لقد ظهر جنود !»

«أي جنود ؟!»



«إنهم فرنسيون ... ثلاثة جنود فرنسيين!»
«هل تعرفهم!»
«رينيه مارسيل واحد منهم! »
«ثم ؟!»
«إنهم يتهامسون ضاحكين !»
همت بالسؤال فصاح :
«إنهم يدبرون شيئا!! »
كادت تسأله فعاد يرتجف صائحا :
«إيزابيلا انتبهت ... أشارت إلى الجنود ... التفتت صديقتيها!»
«مايكل ... مايكل!! »
كان مايكل دارتسون يرتجف الآن، فى لوعة قال :
«بدأت المطاردة ! »
«أية مطاردة؟»
«الجنود يطاردون الفتيات ! »
« الفتيات ؟»
«لقد تفرقن وهن يصرخن!»
«هل تعلم أنك ورثت ذاكرة جدتك أيضا ؟!»
«لحق بها!»
«رينيه مارسيل؟! »
«لحق بإيزابيلا!»
«ثم...»
«جذبها إليه !»



قال جملته الأخيرة وثمة ابتسامة تجتاح ملامحه... لم تسأل ... بل انتظرت، قال في رقة لم تعهدها فيه:

«إنه وسيم! »

تطلعت إليه ميلاني وقد اجتاحتها الدهشه لأول مرة.

«ملابسه رثة، قذرة ... لكنه وسيم.. عيناه زرقاوان ... إنه ...! »

توقف مايكل عن الحديث وتقلصت ملامحه ...

« لا تتوقف ... لا تتوقف أرجوك . صف ما تراه ! »

«إنه يعتدى عليها ؟ »

«هل تقاوم ؟ »

«نعم ... قاومت ، لكنهالم تكن تريد المقاومة!!! »

«هل كانت تتألم؟! »

«نعم كان الألم طاغيا ... لكنها أحبته ... واحبت الألم! »

همت ميلاني بالسؤال لكنه شهق شهقة كادت تقتلع روحه، هتفت به:

«ماذا هناك؟! »

«طلقات رصاص... إنهم الأسبانيون! »

تخاذل جسد مايكل فكأنه كومة من ثياب ألقيت فوق الصخرة... راح يقول:

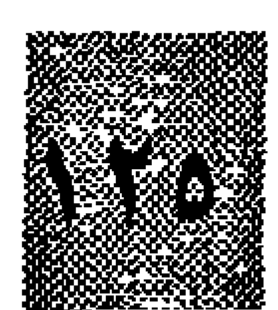
«إنه ينظر خلفه... ثم يعود إليها... لقد ابتسمت !! »

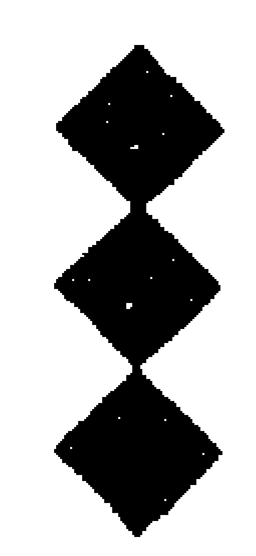
«إيزابيلا! »

«كانت تبتسم فمال عليها وطبع قبلة على شفتيها! »

«ثم ؟! »

«إنها تخلع الصليب وتعطيه له قبل أن يلوذ بالفرار! »





ومــــاتا مـــتـــعــــانـقين!

أدركت ميلانى أنها كانت تواجه موقفاً عصيباً ... كان مايكل دارتسون يرتجف والكلمات تتناثر من بين شفتيه متقطعة ممزقة الحروف... لم يكن هناك مفر فلزمت الصمت حتى هدأ تماما، انقشعت الرؤيا فالتفت نحوها وكأن وجهها غريب عليه ، ابتسمت لكنه لم يبادلها الابتسام بل سرحت نظراته إلى حيث كان الوادى يجثم الصمت على أرضه... سألته إن كان يستطيع تذكر ما رأى فهز رأسه إيجابا وزفر زفرة حارة خالت معها أن صدره يتمزق ألما... ربتت على ذراعه فاستدار نحوها وكانت الدموع تملأ مآقيه.

«مايكل... ماذا هناك؟! »

«ميلانى ... ما الذى حدث؟!»

«لقد ورثت مع ذاكرة جدك ذاكرة جدتك أيضا!»

«أليس هذا أمرا صعباً؟!»

«هل رأيت الصليب؟!»

أدرك مايكل ان لاشئ يعنيها سوى الوصول إلى هدفها ومبتغاها ... نهض متوكئاً على العكاز وراح يهبط التبة مرة أخرى نحو الغابة ... سارت إلى جواره دون كلمة ... ما إن وصلا إلى مكان القبر حتى أشار إليه بالعصا.

«إن الصليب هنا! »



كان وكأنه ينعى عزيزا لديه، قالت فى شك :

«ولكن رينيه مارسيل لم يدفن فى أسبانيا»

أدرك مايكل أن تشويشاً قد طرأ على ذهنها ، و كانت هذه فرصته .

«أعرف أن رينيه مارسيل دفن فى فرنسا، لقد كان الوحيد الذى نجا!»

« ألا تقص على ما حدث؟!»

فى صوت ثابت، وكأنه يقرأ كتابا مفتوحا قال مايكل :

«عندما هاجم الجنود الأسبانيون رينيه وزميليه،كان الصليب فى يد رينيه وكان يخشى إن لحق به الأسبانيون أن يعثروا عليه أثناء الفرار، فسلم الصليب لواحد من صديقيه الذى دسه فى جيبه الداخلى ... واستطاع رينيه أن يصل إلى التل الشمالى فتسلقه واختفى عن الأنظار... لكن صديقه أصيب برصاصة أردته قتيلا مع صاحبه ... ووصل الأسبانيون إليهما وكانا جثتين هامدتين، سحبوا الجثتين إلى الغابة ودفنوهما هنا... هنا !»

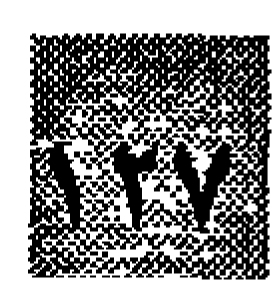
قال مايكل هذا وهو يشير إلى حيث كان القبر .

«هل أنت واثق أن الصليب هنا ؟!»

«نعم إنه هنا !»

«إذن انتظرنى حتى أعود إليك »

تركته ميلانى وحده، ووجد مايكل نفسه يحملق فى القبر ... كان يعلم الآن ماذا هى فاعلة... وماذا عليه هو أن يفعل ... وكان أيضا، قد اتخذ قراره النهائى . كانت دهشة مايكل دارتسون بالغة لهذا التغيير الذى طرأ عليه منذ أن كان يقف فوق تلك الربوة المطلة على الوادى الفسيح، أدرك، دونما حاجة إلى المكابرة، أن ميلانى كانت على حق عندما قالت له إن عناصر قوته سوف تكتمل إذا ما توفرت له كل أسباب الميراث... ولقد كان فى تلك اللحظات التى وقف



فيها عند القبر فى انتظار عودة ميلانى، يشعر حقا بقوته... بل إنه كان يشعر أنه يستطيع تنفيذ خطته التى أخفاها ــ حتى الآن ـ عن ذهن ميلانى المتقد والمتوثب لقراءة ما يجول بخاطره ... كان يعلم علم اليقين أنها ذهبت إلى السيارة كى تحضر الجاروف... وكان يعلم أنه سوف ينبش القبر ويستخرج الصليب... نعم هكذا قال مايكل دارتسون لنفسه، إنه يملك من القوى ما يستطيع به الكثير، لكنه ـ أبدا ـ لن يستخدم هذه القوى كى يورثها لطفل يحكم العالم !!

«إنك لا زلت تقاوم !»

انتفض ملتفتاً إليها وكانت عائدة تحمل الجاروف فى يدها ... من أجل هذا أصرت على أن يستقلا سيارته اللاندروفر المخصصة للرحلات لأن فيها كل ما يحتاجان إليه --- اتخذ مايكل قراره بألا ينبش القبر، وأن يحفر فى طريق مباشر نحو الصليب المنشود... أدرك أن ميلانى سوف تعترض، لكنه كان يعلم الآن كيف يواجه اعتراضها!!... كانت نظرة واحدة من عينيه كفيلة بإيقافها عند حدها... وكان يحفر الأرض بجوار القبر عندما اعترضت ميلانى... وجه إليها نظرة صارمة لزمت بعدها الصمت وهى تنظر إليه مركزة عينيها فى عينيه ... ما هى إلا ثوانٍ حتى همهمت:

«لقد امتلكت أسباب قوتك إذن !!»

أدرك لحظتها أن عنصرا جديدا قد دخل فى الموضوع، أدرك أن الصراع قد بدأ بينهما فعلاً... صراع بين قوة التنبؤ وقوة السحر ... كانت ميلانى تملك ما كان يملكه راسبوتين، ولم تكن تريد لهذه القدرات الفذة أن تتبدد... ولا بد أن تورثها لابن تحمله فى أحشائها... وهكذا، وهى فى هذه السن الصغيرة، راحت تبحث عمن يملك من القوى ما يضيف إلى ولدها ولا ينتقص منه ... وكلما

اقترب الجاروف من مكان الصليب، كان ذهنه يصفو أكثر، وأصبحت أفكاره مرتبة، قال لنفسه أنه يملك القدرة الآن كى يحجب عنها، بقدر استطاعته ، ماكان ينتويه.

«مايكل !»

رفع رأسه نحوها وكان يتصبب عرقاً وقد غاص فى الأرض بضع ياردات!

«لماذا ؟! »

غرس الجاروف فى الأرض واستند إليه لاهثا وهويسأل :

«ماذاتقصدين بالله عليك؟!»

«لا تنس أنى أنا التى قدتك إلى مكمن القوة فيك! »

«أنا لم أنكر مثل هذه الحقيقة! »

«هل تريد التخلص منى؟!»

«لا أفكر فى مثل هذا الأمر يا ميلانى !»

عندما سألته سؤالهاهذا الأخير ، أدرك تماما أنها تتخبط .

«ليس معنى هذا أنى لا أستطيع قراءة أفكارك !»

هكذا عادت إلى قراءة أفكاره وكانت عيناها تطلقان نظرات تحدّ واضحة، ابتسم متسائلا :

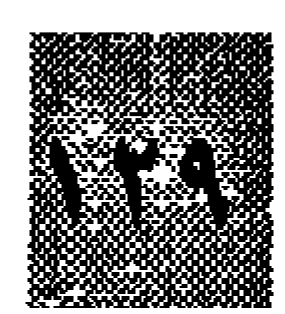
«هل قرأت هذا فى أفكارى !»

صمتت لثوان قبل أن تقول :

«علينا أولا أن ننتهى مما نحن فيه !»

عندما وصل مايكل إلى عمق معين توقف عن الحفر ، وألقى بالجاروف خارج الحفرة.

«لماذا توقفت عن الحفر يا مايكل ؟! »



« لأن الصليب هاهنا! »

قال هذا وهو يقبض على العكاز الذى كان فى متناول يده، بالعكاز راح يزيح الأتربة فى حرص حتى بدت سترة جندى فرنسى حال لونها ... مد يده إلى السترة وأزاح الأتربة... كانت يده الآن تعرف الطريق جيدا ... دس أصابعه فى جيب السترة فتهاوت خيوطها تراباً... اصطدمت أصابعه بشئ صلب فأدرك أنه وصل إلى بغيته، قبضت أصابعه على الصليب ، وكان لا يزال محتفظاً ببريقه ... رفعه أمام عينى ميلانى فشهقت فى سعادة وامتدت إليه يدها لكنه ضم الصليب إلى صدره هو يقول:

«لا تنسى أن هذا ميراثى وليس ميراثك! »

قفز من الحفرة وراح يعيد الأتربة إليها من جديد.

«هل هذا هو نفس الصليب الذى رأيته وأنت فوق الربوة تطل على الوادى؟! »

قال وهو يهيل التراب فى الحفرة مرة أخرى :

«لابد وأن الأمر كذلك! »

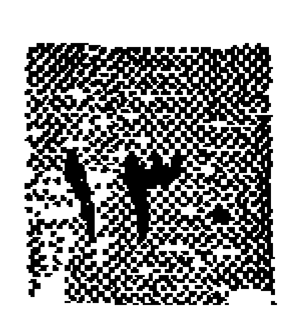
***

فى المساء كانا قد عادا إلى الفندق... مرا فى طريقهما بفندق الكلافيل فتذكر تلك الرؤيا وتذكر خروجه إلى الطريق حافى القدمين وتذكر صوت المثقاب فجاءه صوت ميلانى:

«لماذا لا تحذرهم ؟! »

لم يجد جوابا، هز كتفيه وهو مستمر فى قيادة السيارة إلى فندقه ... غادرا السيارة أمام الفندق وكان قد اتخذ قراراً بالعودة إلى فرنسا فى نفس الليلة.

«ولكنك متعب؟! »



قالت هذا وهما فى المصعد فابتسم ... هكذا استطاع أن يتحكم فى أفكاره، أن يدعها تقرأ ما يريد ويحجب عنها ما يريد... أدرك أنه يسير فى الطريق الصحيح فوضع يده فوق كتفها وهما يغادران المصعد إلى غرفتيهما ... قال هامسا :

«لو أننا وصلنا إلى البيت قبل منتصف الليل، فلسوف يكون أمامنا وقت نتجاذب فيه أطراف الحديث يا عزيزتى !»

التفتت إليه والتمعت عيناها وكان ـ بكلماته وعقله ـ يبثها رسالة... هتفت به وقد توقفا أمام غرفتها :

«مايكل !!»

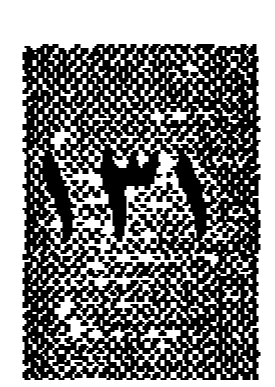
«أمامنا بضع دقائق كى نبدأ رحلة العودة فلا تتأخرى !»

وكانت سعادته بالغة، عندما أطاعت وزغاريد السعادة تنطلق من عينيها!

فى طرق ملتوية راح يفكر بسرعة ، من موضوع إلى موضوع راح ينتقل ... فى أعماق تفكيره خيط يصل الحقائق بعضها ببعض ... لقد دفعته ميلانى إلى ما لا يريد حقا وإن كانت فى أعماقه رغبة فى إطاعتها... ها هو مايكل دارتسون رجل الأعمال والمستشار الاقتصادى الشهير ينبش القبور ويقرأ المستقبل ويتحكم فى الحاضر، وهو ، إذا ما أنجب طفلا من ميلانى ، فلسوف يستطيع طفله هذا أن يحكم العالم... فهل يريد هذا ؟!

***

وضع العكاز فى مؤخرة السيارة، وقفزت ميلانى إلى المقعد المجاور لمقعده، وانطلقت بهما السيارة فى الطريق إلى الحدود الفرنسية الأسبانية... ساد بينهما الصمت طويلا وكانت السيارة تنهب الأرض نهباً!... جاءه صوت ميلانى متوترا:



«أراك قد عرفت الطريق جيدا ! »
فى لا مبالاة قال :
«لابد أن نتجنب الانهيار الذى حدث بالأمس !»
وصرخت الدهشة فى ذهن ميلانى فقرأها بوضوح وابتسم :
«هل لك أن تفتحى الراديو !»
امتدت يدها إلى مفتاح الراديو قائلة:
«كنت سأقترح عليك هذا ! »
«تقترحين ماذا ؟! »
راحت تحرك المؤشر مغمغمة :
«أن نستمع إلى الموسيقى ! »
«ولكنى لا أريد أن أستمع إلى الموسيقى يا ميلانى ! »
التفتت نحوه فى جزع وفزع وكان هو يبتسم :
«إنى أريد أن أستمع إلى نشرة الأخبار !»
أطاعت ميلانى دون كلمة وكانت ترتجف ... سرى صوت المذيع يتلو نشرة الأخبار بالفرنسية ... توقف عن الإذاعة معلنا أن كارثة وقعت فى أسبانيا ... دق قلبه فى عنف وهو يستمع إلى تفاصيل انهيار فندق الكلافيل، صرخت ميلانى :
«ألم أقل لك ؟!»
صمت ... لم يرد ... كان يعرف الآن كل شئ ... جاءه صوتها معاتبا :
«لو أنك حذرتهم لما راح مئات الضحايا تحت أنقاض الفندق ! »
لم ينبس مايكل دارتسون بحرف ... كان يرتجف فقط، كانت البرودة تسرى فى جسده!! ... وكما أخبرها تماما وصلا إلى الريفيرا الفرنسية قبل انتصاف



الليل، حمل عكازه وقبض على صليبه وهما يدلفان إلى البيت ... بعد ساعة كانا قد اغتسلا وجلسا في الشرفة المطلة على البحر الأبيض المتوسط.. أعدت ميلاني كأسين راحا يرشفانهما في تلذذ واضح ...

التفت نحوها قائلا :

«وماذا بعد ؟! »

كانت خطة مايكل دارتسون الخفية تعتمد على تنفيذ رغبات ميلاني بالحرف الواحد حتى تحين اللحظة المناسبة للتخلص منها ... غير أن مايكل - وهو يعد خطته تلك في دروب متعرجة حتى لاتلتقط ميلاني التفاصيل في ذهنه - كان يعلم علم اليقين أن في خطته نقطة ضعف قاتلة !... ذلك أنه، وبوضوح، كان يريد ميلاني !!... كما كان يعلم يقيناً أن ولده منها سوف يمتلك من القوى ما لم يتوفر حتى لأى من أجداده الكبار ... وأن يمتلك إنسان قدرات راسبوتين الرهيبة، وإمكانيات نوستراداموس المخيفة فلسوف يصبح هذا هو الجنون بعينه ... لسوف يستطيع أن يحكم العالم فعلا!

«لا تنس أنى أمتلك من القدرات ما لا تعلم أنت عنه شيئا! »

قالت ميلاني هذا وكانت جالسة إلى جواره في الشرفة ونسمات الليل ترطب وجهه الملتهب ... التفت نحوها فابتسمت وهي تواجهه بذلك الوجه الصارخ الجمال وتلكما العينين السحيقتي العمق فأدرك أن لحظة ضعفه قد حانت ، فهل يقاوم ؟

«لن تستطيع !»

هكذا أجابت علي أفكاره فاستسلم متسائلا :

«ولماذا ؟!»

«لأنك تريدنى !»

كانت على حق!!

«ولأنك تحبنى !! »

رفع حاجبيه دهشة فأردفت :

« يبدوأن العناد والمقاومة يكونان جزءاً هاماً من تفكيرك ! »

انطفأ البريق فى عينيها فهتف في شوق إليه :

« ميلانى »

وضعت كأسها جانبا ونهضت إلى حيث السياج وراحت تطل على البحر ... أحس أنها فى وقفتها تلك تدعوه فوضع الكأس جانباً ولحق بها ... وعندما وقف إلى جوارها كان يشعر وكأنه يتجدد، كله يتجدد ... جسده وروحه وقدراته وذهنه وذاكرته ... التفت نحوها وجاءه صوتها مغردا :

« ألم أقل لك إنى أملك ما لاتملك ! »

كان الضعف يكويه ... وكانت رغبته فيها تتأجج مثل جحيم لا يطاق . كمن يرفع الراية البيضاء استسلاما قال مايكل متوسلا:

« ألم نأت إلى هنا كى نتجاذب أطراف الحديث؟ »

« وهل نسيت أننا نستطيع ذلك دون كلام ؟! »

أصابه الفزع، لكن شيئا آخر كان يعتمل فى نفسه، حقيقة بدت له رهيبة، فمن أين يضمن أن ميلانى لم تقرأ أفكاره جميعاً ؟!!

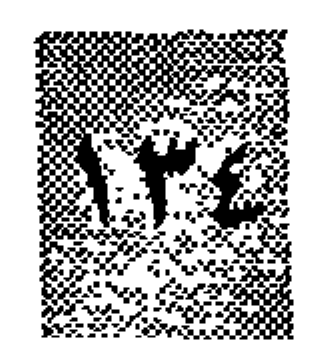
« إنك لا تكف عن الهرب ! »

هم بالحديث لكنها استدارت نحوه بكليتها.

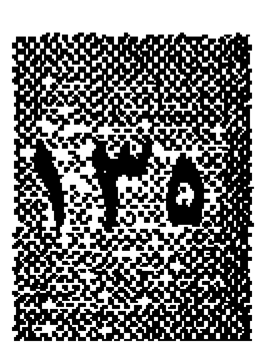
« لقد تزوجنا مرة من قبل! »

« كيف ؟! »

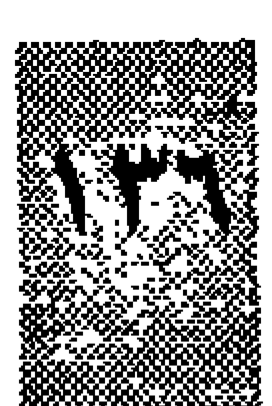
« تزوجنا فى حياة سابقة ! »



«وهل كنا سعداء؟!!»
«كانت سعادتنا لا توصف!»
«وهل أنجبنا أطفالا ؟!»
«كانت هذه هى ذروة المأساة فى قصة حبنا !»
راحت ميلانى تقوده مرة أخرى عبر دهاليز الماضى فكأنه يشاهد فيلما على شاشه الحياة،أحس أنها لم تكذب فى كلمة فلقد كان يحس ما تقوله إحساسا مباشراً ...كانت ذروة المأساة فى قصة حبهما الأولى أنهما لم ينجبا طفلاً فماتا من الحسرة .
«فى تلك الحياة لم تكن عنيدا إلى هذا الحد !»
«ولكن كيف ...»
ولم يكمل مايكل دارتسون ... كانت مقاومته قد انهارت وكان يرتمى فى أحضانها مثلما ارتمت هى فى أحضانه، وراح كل منهما ، فى الهواء الطلق، يلتهم الآخر حبا !!!
***
فى تلك الليلة، نامت ميلانى واستغرقت فى النوم ... لكن مايكل دارتسون لم يذق للنوم طعماً... كانت خطته الآن تقترب من نهايتها ، وكان قد وقع فى نقطة ضعفه وانتهى الأمر... فى الصباح فتحت عينيها ونظرت إليه فأحس لأول مرة بشئ جديد يغزو قلبه!!
«مايكل... إنى أحبك !»
قفز من الفراش هاتفاً أو هاربًا :
«وهذه هى نقطة الخلاف بيننا !»
تثاءبت وتمطت وجلست فى مكانها وهى تقول :



«لسوف يصبح ولدك أقوى رجل فى العالم !»
«حان دورك لكى تهربى !»
هكذا قال فابتسمت، همست متمتمة :
«إنى فى النهاية امرأة ! »
«إنك تحبيننى حقا ، وانا أصدقك ، لكنك تحبين القوة أكثر ! »
هكذا واجهها فردت فى لا مبالاة :
«وأنت ؟!»
«الكارثة أنى أحببتك منذ اللحظة الأولى التى وقع فيها بصرى عليك ! »
«متى عرفت هذه الحقيقة؟! »
«بالأمس! »
«ألا تحب القوة الكامنة فيك أكثر منى ؟!»
عاد إليها مايكل دارتسون، حمل مقعدا وضعه إلى جوارها وهو يقول :
«بالأمس، ونحن عائدين فى الطريق الجبلى، أردت أن ألقى بالعكاز والصليب فى تلك الهوة السحيقة التى يلتوى الطريق الجبلى فوقها! »
اعتدلت ، وكانت الآن مثل طفلة، وهى تهتف :
«ولكنك لم تفعل!»
«نعم !»
«أرأيت ... لأنك تحب القوة أكثر !»
«هذا غير صحيح !»
«مايكل ... إن الـ ... ... »
قاطعها فى مرارة :
«إنى لم أفعل ، فقط ، حتى لا أغضبك! »
عندما قال مايكل ما قال ، أدرك أن النهاية قد اقتربت، كان يعلم أنه لا



يحتمل تلك القدرات الرهيبة التى اكتشفها فى نفسه ولا يريدها ... وكان يعلم أيضا أنه لن يستطيع التخلص من أيهما، لا من الحب، ولا من القدرات، ولا من الرغبة فى كليهما معا!!

... ...

... ...

كانا الآن قد اغتسلا وبدلا ملابسهما واستقلا المصعد فى طريقهما إلى غرفة الطعام فى الطابق الأول... لفهما الصمت عميقا وكان المصعد يهبط ـ كعادته ـ فى بطء لكنه فى لحظه توقف!!

«ماذا حدث ... هل انقطع التيار الكهربى ؟»

هكذا تساءل مايكل فجاءه صوت ميلانى مغلفاً بحزن بلا حدود :

«لا يا مايكل ... لم ينقطع التيار !»

«إذن فلماذا توقف المصعد؟!»

« أنا التى أوقفته ! »

نظر إليها دهشا، وكانت عيناها مليئتان بالدموع :

«ألم أقل لك إنى أمتلك من القدرات ما لا تعلم عنه شيئا ؟!»

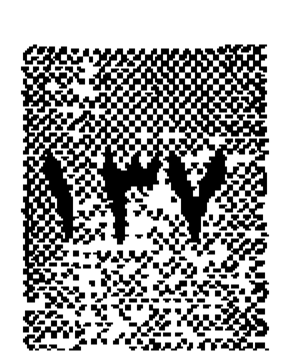
هم بالسؤال ولكنها أردفت :

«إنه القدر ... أن تنتهى قصة حبنا، دائما وفى كل عصر بمأساة ! »

قبل ان يفتح مايكل دارتسون فمه بكلمة كان المصعد يهوى إلى قرار سحيق!

***

قال المحقق خاتماً تقريره عن هذا الحادث المؤسف : ويبدو أن الضحيتين قد شعرتا فى لحظة أن النهاية قد حانت، فارتمى كل منهما فى أحضان الآخر ... ذلك أننا عثرنا على الجثتين متعانقتين!



عربية للطباعة والنشر
١٠٠٧ شارع السلام ـ أرض اللواء المهندسين
تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ ـ ٣٠٣٦٠٩٨

أقوى طفل في العالم

تدور أحداث هذه الرواية التى تحمل عنواناً غريباً « أقوى طفل فى العالم » ، حول حقيقة بالغة الغرابة . . . هذه الحقيقة ، وإن كانت لا تزال مطروحة للبحث والتجربة والاكتشافات النفسية أو الروحية الحديثة ، إلا أنها تقوم على مجموعة من الحقائق التى ثبتت صحتها بالتجربة والتمحيص العلمى . . . هذه الحقيقة الجديدة ، أو بمعنى أدق ، هذا التصور الجديد يدور حول سؤال : هل يورث العقل الإنسانى كما تورث الأموال والطباع والعقارات والوجوه ؟

صالح مرسى